جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف

الدين والحياة

(١)

إعــداد

الإدارة العامة للفتوى وبحوث الدعوة

إشراف ومراجعة وتقديم

أ.د/ محمد مختار جمعة

وزير الأوقاف

١٤٤٣هـ / ٢٠٢٢م

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا
تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾

(سورة هُود : ٨٨)

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديـــم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمد بن عبد الله ، وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه إلى يوم الدين.

وبعـد :

فإن الدين ليس بمعزل عن حركة الكون وعمارته ، فالدين فن صناعة الحياة لا صناعة الموت ، فلن يقدر الناس ديننا ما لم نتفوق في أمور دنيانا ، فإن تفوقنا في أمور دنيانا احترم الناس ديننا ودنيانا.

وإن صحيح العقل لا يمكن أن يصادم صحيح النقل ، فمن أنزل صحيح النقل هو سبحانه من زين الإنسان بالعقل ، ومنحه القدرة على التأمل والتفكير والفهم ، والأديان إنما جاءت لتحقيق مصالح البلاد والعباد ، فحيث تكون المصلحة المعتبرة فثمة شرع الله الحنيف، وهو ما تسعى إلى تحقيقه العقول الرشيدة والقيادات الحكيمة .

الدين والدنيا يتكاملان ولا يتصادمان ، فكل ما يؤدي إلى سعادة الناس في حياتهم هو من صميم معاني الأديان ومقاصدها العليا ، وكل ما يؤدي إلى الضعف واضطراب الحياة وانتهاج سبل الغي والضلال يتناقض مع الدين والخلق والفطرة الإنسانية السوية.

الدين والدولة لا يتناقضان ، إنما يرسخان معًا لأسس العمل والإتقان والبناء والتعمير ، والتكافل المجتمعي ، وأن لا يكون بيننا جائع ، ولا محروم ، ولا عارٍ ، ولا مشرد ، ولا محتاج ، الأديان رحمة كلها ، عدل كلها ، سماحة كلها ، يسر كلها ، وهو ما عليه الإنسانية السوية.

وفي هذا الكتاب نقدم للقارئ الكريم عددًا من الموضوعات المهمة ، منها : تقدير المصلحة وتنظيم المباح ، والصلابة في مواجهة الجوائح والأزمات ، والعمل واجب ، ومخاطر الطلاق ، ومخاطر الهجرة غير الشرعية ، والتكافل المجتمعي ، والأمن الغذائي ، وجبر الخاطر وأثره على الفرد والمجتمع ، وقيمة الاحترام ، والأسرة سكن ومودة ، والتاجر الأمين ، والصانع المتقن ، والزارع المجد ،

وأهمية الاستثمار في حياتنا ، إلى غير ذلك من الموضوعات شديدة الصلة بواقع الناس وشئون حياتهم .

وقد راعينا في هذه الموضوعات أن تكون في إطار سماحة الإسلام ووسطيته ، في أسلوب سهل ميسر لكل الباحثين عن الفكر الوسطي المستنير من المتخصصين وغير المتخصصين.

والله من وراء القصد ، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

أ.د/ محمد مختار جمعة مبروك
وزير الأوقاف
رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

تقدير المصلحة وتنظيم المباح

إن المتأملَ في أحكام الشريعة الإسلامية يجدُ أنها جاءت لتحقيقِ مصالح البلاد والعباد ، والسُّمُوِّ بالنفسِ البشريةِ ، والارتقاءِ بها إلى أعلى الدرجات ؛ لذلك لم تأتِ الأحكامُ كلُّها ثابتةً مستقرةً ؛ بل كان منها ما هو ثابتٌ مستمرٌّ ، ومنها ما هو متغيرٌ يختلف باختلاف الزمان والمكان والأعراف والأحوال والحاجة ودفع الضرر والمشقة، فأحكامُ الشريعةِ تدورُ مع المصلحةِ وجودًا وعدمًا ؛ وحيثما وُجدت المصلحةُ فثَمَّ شرعُ الله سبحانه وتعالى .

ولقد أقامت الشريعةُ الإسلاميةُ نظامًا متوازنًا يراعي بين المصلحةِ العامةِ والمصلحةِ الفرديةِ ، بما يحققُ صالحَ الوطنِ وصالحَ أبنائه جميعًا ، فتتحققُ للمجتمعِ قوةُ البنيانِ الواحدِ ، وشعورُ الجسدِ الواحدِ الذي حثَّ عليه نبيُّنا (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) في قوله : (المُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا، وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ)[1].

---

(١) متفق عليه: صحيح البخاري ، كتاب المظالم ، بَابُ نَصْرِ المَظْلُومِ ، حديث رقم =

ومن المقرَّرِ شرعًا وعقلًا أن ما يحققُ النفعَ العامَّ للبلاد والعباد مقدمٌ على ما يحققُ النفعَ الخاصَّ لشخصٍ بعينه ، أو مجموعةٍ من الأشخاصِ، وأنه إذا تعارضَت المصلحةُ العامةُ مع المصلحةِ الخاصةِ قُدِّمت المصلحةُ العامةُ على الخاصةِ ؛ ذلك أن المصلحةَ العامةَ تشملُ كلَّ ما يحققُ إقامةَ الحياةِ من أمورٍ ماديةٍ ، ومعنويةٍ ، تجلبُ الخيرَ والنفعَ للناس ، وتدفعُ عنهم الشرَّ والمفاسدَ ، وتحققُ حمايةَ الوطنِ واستقرارَه وسلامةَ أراضيه ؛ فالشرعُ إنما جاء ليحفظَ على الناس دينَهم ، ووطنَهم ، وأنفسَهم ، وعقولَهم ، وأنسابَهم ، وأموالَهم ؛ لذا قرَّر الفقهاءُ أن الضررَ الخاصَّ يُتحَمَّلُ لدفعِ الضَّرَرِ العام ، وأنه إذا تعارضتْ مفسدتانِ روعي أعظمُهُما ضررًا بارتكابِ أخفِّهما .

فتقدير المصلحةِ المعتبرةِ مسئوليةُ وليِّ الأمر؛ ذلك أنه أعلمُ بالمصلحةِ العامةِ ، وأكثرُ إلمامًا بجوانب الأمورِ ، وما يترتبُ عليها من تبعاتٍ ؛ لذا يقول الحقُّ سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ

= ٢٤٤٦، واللفظ له ، وصحيح مسلم ، كتاب الْبِرِّ وَالصِّلَةِ وَالْآدَابِ ، بَابُ تَرَاحُمِ الْمُؤْمِنِينَ وَتَعَاطُفِهِمْ وَتَعَاضُدِهِمْ ، حديث رقم ٢٥٨٥ .

وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[1].

إنَّ احترامَ النظامِ والحفاظَ عليه مبدأٌ أصيلٌ من مبادئ الشريعة الإسلامية ؛ إذ لابد لكل فئةٍ تتعايشُ في مجتمعٍ واحد من القوانينِ التي تنظم للناس أمورَ حياتِهم ، ومن أهم ما يجبُ تنظيمُه في المجتمع: الأمورُ المباحةُ ؛ لأنَّ بعضَ الناسِ قد يتجاوزُ في استخدامِ المباحِ، فيتحولُ الأمرُ بسوء استخدامِه من الإباحة إلى الحرمة، يقول سبحانه: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾[2]، ويقول تعالى : ﴿وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا * إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾[3]، فالخروجُ بالإنفاقِ إلى حدِّ السَّفَهِ والتبذيرِ يخرجُ به من الحِلِّ إلى الحُرمة ؛ فلوليِّ الأمر أن يُقَنِّنَ المباحَ أو يُقَيِّدَهُ ؛ بل عليه أن ينظِّمَهُ أو ينيبَ من ينظمُه من أصحاب الولايات الخاصة التي تنبثق من الولاية العامة ، كلٌّ

(١) النساء :٥٩.

(٢) الأعراف: ٣١ .

(٣) الإسراء : ٢٦، ٢٧.

حسب اختصاصِه ؛ لأن دنيا الناس لا تصلح بدون قانون ولا نظام، وإلا صارت الدنيا إلى عشوائيةٍ مَقيتةٍ ، وفوضى تضرُّ ولا تنفعُ ، ومن ذلك على سبيل المثال: حقُّ الطريق الذي يُعَدُّ كَفُّ الأذى عنه شعبةً من شعب الإيمانِ ، ولأجل تنظيمِ المباح شُرِعَ الحجرُ على السفيه والمبذِّر في الفقه الإسلامي .

ومما لا شك فيه أن تنظيمَ المباحِ بما يتناسب مع تحقيق النفع العام فيه درءٌ للمفاسدِ ، وجلبٌ للمصالح ؛ إذ لا مفسدةَ أشدُّ من الإضرار بحياة الناس ، والأولويةُ تكون أولًا لإزالة كلِّ ما يُشَكِّلُ خطرًا على الحياة ، ثم لما يحققُ مصالحَ الناس ، ويجبُ على كل الناس أن يتعاونوا في ذلك ؛ لأن الثمارَ يحصدها المجتمعُ كلُّه ، والضررُ – لا قدّر الله – يقع على المجتمع كله ، وقد بيَّن ذلك نبيُّنا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) في قوله : (مَثَلُ القَائِمِ عَلَى حُدُودِ الله وَالوَاقِعِ فِيهَا ، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاَهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا ، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ المَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ

فَوْقَنَا ، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا ، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا ، وَنَجَوْا جَمِيعًا)[1].

* * *

(١) صحيح البخاري ، كِتَاب الشَّرِكَةِ ، بَاب هَلْ يُقْرَعُ فِي القِسْمَةِ وَالِاسْتِهَامِ فِيهِ، حديث رقم ٢٤٩٣.

الأمن الغذائي
حمايته وحرمة التلاعب به

إنَّ الدِّينَ الإسلامِيَّ الحَنِيف دينٌ شامل لكل نواحي الحياة بمَا تصلح به حَيَاة البشر ، ويتَوافَقُ مَعَ متطلباتهم المَعِيشيَّة واحتيَاجَاتِهِم الإنسانية ، ويكفل لهم السعادة في الدنيا والآخرة ، قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾[1].

فقد عُنِيَ الإسلام بالْمُقَوِّمَاتِ الأَسَاسِيَّـةِ لِحَيَاةِ الإنْسانِ ، من مَطْعَمٍ ومشْرَبٍ ، ومسْكَنٍ ، ومَلْبَسٍ ، وغير ذلك مما يساعد على استقرار حيــاتــه وسكينتها وطمأنينتها ، وتحقيــق أمن الإنســان بكل صوره وجوانبه.

على أن نعمة الأمن من أعظم نعم الله - عز وجل- على الإنسان لا يستطيع أن يعيشَ بدونها ، ولا يشعر بلذة العبادة والطاعة أو

---

(١) النحل: ٨٩.

الطعام والشراب إلا بتحققها، يقول سبحانه:﴿لِإِيلافِ قُرَيْشٍ * إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾(١).

ومن مجالات الأمن التي اهتم بها الإسلام وحرص على تحقيقها: (الأمن الغذائي) بعيدًا عن الجشع والطمع والغش والاحتكار والاستغلال والنفعية والأنانية ، فللأمنِ الغِذَائي أهَمِيَّةٌ كُبْرَى في حَيَاةِ الأفْرادِ والأمَمِ ، فهو يَرتَبِطُ ارتبَاطًا وثيقًا بالاستِقْرَارِ والأمْنِ المُجْتمَعِيّ ، وقد رَبَطَ القُرآنُ الكريمُ بينهُمَا بِربَاطٍ وثيقٍ إلى يومِ القيامةِ ، فقال سبحانه مُمْتَنًّا على أهلِ مكَّةَ بهاتين النِّعْمَتَيْنِ : ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾(٢).

وكذلك جاءت السنة النبوية المطهرة بما يجعل الأمنَ الغِذائي ركيزة مهمة من ركائز الحياة المستقرة ، وربطت كذلك بينه وبين

---

(١) قريش: ١– ٤.

(٢) القصص: ٥٧.

الأمن المجتمعي ، حيث يقول نبينا (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ ، مُعَافًى فِي جَسَدِهِ ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا)(١).

فالأمن الغذائي ضرورةٌ لحفظ كرامة الفرد والأمة ، وإن أيَّ مساسٍ به له عواقبُه وأضراره الخطيرة بما يجعل المساس به جريمة كبرى في حق المجتمعات ، لما يترتب على افتقاده من مفاسد وجرائم متعددة كالسرقة والسلب والنهب وقطع الطرق والغصب والرشوة والاحتيال والتربح والابتزاز ، وغير ذلك من مفاسد وشرور.

لذا حرصت الشريعة الإسلامية على حماية المجتمع من الجشع والاستغلال ، وحرَّمت التلاعب بأقوات الناس وحاجاتهم الأساسية ، وحثَّت على السعي في تحصيل المال الحلال باكتسابه من الطرق المباحة المشروعة ، دون أي اعتداء أو ظلم للآخرين ، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا * وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ

---

(١) سنن الترمذي ، أَبْوَابُ الزُّهْدِ ، بابٌ منه ، حديث رقم ٢٣٤٦.

ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا﴾ (1)، كما حثت التاجر على الصدق والسهولة واليسر والسماحة وحسن المعاملة في بيعه وشرائه فلا يغالي في الربح، حتى لا يرهق كاهل الفقراء والمحتاجين ، فيكون ذلك سببًا لمحق البركة من رزقه ، يقول نبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (رَحِمَ الله رَجُلاً سَمْحًا إِذَا بَاعَ وَإِذَا اشْتَرَى وَإِذَا اقْتَضَى)(2)، وقال (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (دَخَلَ رَجُلٌ الْجَنَّةَ بِسَمَاحَتِهِ ، قَاضِيًا وَمُتَقَاضِيًا)(3).

وقد نهى النبي (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) عن السلوكيات الاستغلالية التي يمارسها من لم يراقب الله – عز وجل– من التجار، إذ يقول: (مَنِ احْتَكَرَ حُكْرَةً يُرِيدُ أَنْ يُغْلِيَ بِهَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ فَهُوَ خَاطِئٌ)(4)، فالخاطئ أشد جرما وشراسة من المخطئ ، فالله تعالى يقول: ﴿لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾(5).

(1) النساء : 29، 30.

(2) صحيح البخاري ، كتاب البيوع ، بَابُ السُّهُولَةِ وَالسَّمَاحَةِ فِي الشِّرَاءِ وَالبَيْعِ، وَمَنْ طَلَبَ حَقًّا فَلْيَطْلُبْهُ فِي عَفَافٍ، حديث رقم ٢٠٧٦.

(3) مسند أحمد ، ١١/ ٥٥٠ ، حديث رقم ٦٩٦٣.

(4) مسند أحمد، ١٤/ ٢٦٥، حديث رقم ٨٦١٧.

(5) الحاقة: ٣٧.

ويؤكد ذلك قوله (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) في رواية أخرى: (مَنِ احْتَكَرَ طَعَامًا أَرْبَعِينَ لَيْلَةً، فَقَدْ بَرِئَ مِنَ الله تَعَالَى، وَبَرِئَ الله تَعَالَى مِنْهُ)[1]، والاحْتِكَار والاستغلال يكونان سَببًا في هَلاكِ ودَمَارِ صاحبهما في الدنيا والآخرة ، يقول نبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (مَنْ دَخَلَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَسْعَارِ الْمُسْلِمِينَ لِيُغْلِيَهُ عَلَيْهِمْ ، فَإِنَّ حَقًّا عَلَى الله أَنْ يُقْعِدَهُ بِعُظْمٍ مِنَ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)[2].

ولكي تتم حماية الأمن الغــذائي حرّم الإســلام كل ما يؤدي إلى التلاعب به ، ومن ذلك الغش بجميع صوره ، فقال سبحانه: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذا كالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾[3].

ومن صُورِ الغِشِّ خَلْط الجيد بالرديء ، وإظهار الرديء في صورة الجيد وبيعه بقيمته ، فقد مرَّ رَسُولُ الله (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) عَلَى صُبْرَةٍ مِنْ طَعَامٍ ، فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِيهَا، فَنَالَتْ أَصَابِعُهُ بَلَلًا فَقَالَ: (مَا

---

(١) مسند أحمد، ٨ / ٤٨١ ، حديث رقم ٤٨٨٠ .

(٢) مسند أحمد، ٣٣/ ٤٢٥، حديث رقم ٢٠٣١٣.

(٣) المطففين: ١-٣.

هَذَا يَا صَاحِبَ الطَّعَامِ؟)، قَالَ أَصَابَتْهُ السَّمَاءُ يَا رَسُولَ الله، قَالَ: (أَفَلَا جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ كَيْ يَرَاهُ النَّاسُ، مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنِّي)(١).

وبسبب حساسية العمل التجاري نجد المصطفى(صلى الله عليه وسلم) يقول:(التَّاجِرُ الصَّدُوقُ الأَمِينُ مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ)(٢)، هكذا جاء الشرع الحنيف مادحًا لكل صلاح ، محاربًا لكل فساد ، فقال سبحانه : ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾(٣)، ويقول سبحانه : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ الله كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَالله يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَالله وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾(٤)، ويقول نبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ العِبَادُ فِيهِ إلا مَلَكَانِ يَنْزِلَانِ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا : اللهمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا

(١) صحيح مسلم، كِتَابُ الْإِيمَانَ، بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): «مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا» ، حديث رقم١٠٢ .

(٢) سنن الترمذي ، أبواب البيوع ، بَابُ مَا جَاءَ فِي التُّجَّارِ وَتَسْمِيَةِ النَّبِيِّ (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) إِيَّاهُمْ ، حديث رقم ١٢٠٩ .

(٣) آل عمران : ٩٢.

(٤) البقرة : ٢٦١.

خَلَفًا، وَيَقُولُ الآخَرُ: اللهمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا)[1]، ويقول (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ ، وَتَرَاحُمِهِمْ ، وَتَعَاطُفِهِمْ، مَثَلُ الجَسَدِ ؛ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالحُمَّى)[2]، فلابد من التكافل والتراحم والتعاون ، وبخاصة في وقت الشدائد والأزمات.

*   *   *

(١) صحيح البخاري ، كتاب الزكاة ، بَابُ اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقَ مَالٍ خَلَفًا ، حديث رقم ١٤٤٢ .

(٢) متفق عليه: صحيح البخاري ، كتاب الأدب ، باب رحمة الناس والبهائم، حديث رقم ٦٠١١، وصحيح مسلم ، كتاب الْبِرِّ وَالصِّلَةِ وَالْآدَابِ ، بَابُ تَرَاحُمِ الْمُؤْمِنِينَ وَتَعَاطُفِهِمْ وَتَعَاضُدِهِمْ ، حديث رقم ٢٥٨٦ ، واللفظ لمسلم .

مخاطر استباحة المال العام والحق العام

لقد جعل الإسلام حفظ المال أحد الكليات الست، والمقاصد الكلية السامية التي أحاطها ديننا الحنيف بالعناية والحفظ والرعاية والصيانة، حيث يحذر الحق سبحانه وتعالى من أكل أموال الناس بالباطل، فيقول (عز وجل): ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا * وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا﴾[1]، ويقول نبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (وَكُلُّ لَحْمٍ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ فَالنَّارُ أَوْلَى بِهِ)[2].

ولقد أحاط الإسلامُ المال بسياجات متعددة من الحفظ ، فشرع الضمان، والكفالة ، والوكالة ، والحَجْر ، كما شرع حد السرقة ، وحد الحرابة لحفظ المال أيضًا ، ونبهنا الشرع الحنيف إلى كتابة

---

(١) النساء: ٢٩، ٣٠.

(٢) المعجم الكبير للطبراني، ١٩/ ١٣٥ ، حديث رقم ٢٩٨ .

الدَّين ، والوفاء به ، وأداء الأمانات ، حيث يقول تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالعُقُودِ﴾(١)، وقال تعالى : ﴿إِنَّ الله يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾(٢)، ويقول (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ ، وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ)(٣).

والمال إما أن يكون مالًا عامًّا أو خاصًّا ، فالمال العام هو ما تملكه الشعوب من الأعيان والمنافع مما لا يقع تحت ملكية فردية ؛ وحرمة المال العام أشد إثمًا وجُرمًا وخطرًا من حرمة المال الخاص؛ لكثرة الأنفس والذمم المتعلقة به ، فالأمانة فيه أشد ، والمسئولية فيه أعظم ، حيث يقول تعالى: ﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ القِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾(٤)، ويقول نبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (إِنَّ رِجَالًا يَتَخَوَّضُونَ فِي مَال الله بِغَيْرِ حَقٍّ ، فَلَهُمُ

---

(١) المائدة: ١.

(٢) النساء: ٥٨ .

(٣) مسند أحمد، ١٩/ ٣٧٥، حديث رقم ١٢٣٨٣.

(٤) آل عمران: ١٦١.

النَّارُ يَوْمَ القِيَامَةِ)[1]، ويقول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (مَنِ اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينِهِ ، فَقَدْ أَوْجَبَ اللهُ لَهُ النَّارَ ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ) فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ : وَإِنْ كَانَ شَيْئًا يَسِيرًا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ : وَإِنْ قَضِيبًا مِنْ أَرَاكٍ)[2].

وكما أمر الإسلام بضرورة المحافظة على المال العام ، فقد أكد على الحفاظ على الحق العام ، وحذَّر أشد التحذير من استباحته بأي صورة من الصور ، ومن ذلك : الاعتداء على المرافق العامة ، كالطرق العامة ، أو المدارس ، أو المستشفيات ، أو وسائل المواصلات ، أو شبكات المياه ، أو الكهرباء ، أو الصرف الصحي، وغير ذلك، فالواجب علينا المحافظة عليها ، وحمايتها ، والعمل على تنميتها وتطويرها ؛ لأنها لنا جميعًا وللأجيال القادمة ، ولأن

(١) صحيح البخاري ، كِتَابُ فَرْضِ الخُمُسِ ، بَابُ قَوْلِ الله تَعَالَى : ﴿فَأَنَّ لله خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ٤١]، حديث رقم ٣١١٨.

(٢) صحيح مسلم ، كِتَابُ الْإِيمَانَ ، بَابُ وَعِيدِ مَنِ اقْتَطَعَ حَقَّ مُسْلِمٍ بِيَمِينٍ فَاجِرَةٍ بِالنَّارِ ، حديث رقم ١٣٧ .

الذي يعتدي على المال العـام يعتدي على الوطن كله ، وعليه إثم كل من له حق في هذا المال .

إن مخاطر استباحة المال العام والحق العام كثيرة على الفرد والمجتمع في الدنيا والآخرة ، فمضيِّع المال العام والحق العام متعرض للوعيد ، ونزع البركة من دعائه ، وماله ، وصحته ، وأولاده ، حيث يقول نبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (إِنَّ اللهَ أَبَى عَلَيَّ أَنْ يُدْخِلَ الجَنَّةَ لَحمًا نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ فَالنَّارُ أَوْلَى بِهِ)[1]، وقال (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (إِنَّهُ لَا يَرْبُو لَحْمٌ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ إِلَّا كَانَتِ النَّارُ أَوْلَى بِهِ)[2]، وذكر نبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) (الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ : يَا رَبِّ ، يَا رَبِّ ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ ، وَغُذِّيَ بِالْحَرَامِ ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟)[3].

---

(١) المستدرك للحاكم ، كِتَابُ الْأَطْعِمَةِ ، حديث رقم ٧١٦٢.

(٢) سنن الترمذي ، أبواب السفر، بَابُ مَا ذُكِرَ فِي فَضْلِ الصَّلَاةِ، حديث رقم ٦١٤.

(٣) صحيح مسلم ، كِتَاب الزَّكَاةِ، بَابُ قَبُولِ الصَّدَقَةِ مِنَ الْكَسْبِ الطَّيِّبِ وَتَرْبِيَتِهَا=

ولا شك أنَّ مال الوقف وأعيانه يعد من المال العـام ، فقد أوقفه أناس صالحون على سُبل الخير؛ مما يجعل الاعتداء على أي عين من أعيان الوقف أو حق من حقوقه جريمة شرعية ووطنية ، كما أن الحفاظ على مال الوقف وأعيانه وحقوقه واجب وأمانة شرعية ووطنية.

إنَّ مستبيح المال العام والحق العام إن نجا من العقوبة في الدنيا فإنَّه لن يفلت من حساب الله تعالى وعقابه في الآخرة ، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَاللهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾[1]، وقال تعالى : ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[2]، وقال (عز وجل) : ﴿وَوُضِعَ

= حديث رقم ١٠١٥.

(١) آل عمران: ٣٠ .

(٢) الإسراء: ١٣ ، ١٤ .

الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾[1] .

* * *

(١) الكهف: ٤٩ .

مخاطر الطلاق

لقد جعل الإسلام للحياة الزوجية قدسية خاصة ، ومكانة سامية ، وسنَّ من الحقوق والواجبات والآداب ما يضمن استقرارها ، وترابطها ، وتماسكها ، واستدامتها في إطار السكن، والمودة ، والرحمة ، والاحترام المتبادل ، حيث يقول الحق سبحانه: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾[1]، ويقول نبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لأَهْلِهِ)[2].

والمتأمل في القرآن الكريم يجد أن الله – عز وجل– قد سمَّى الزواجَ ميثاقًا غليظًا ؛ ليدل على وجوب احترامه ، وليحذِّر من خطورة هدمه ونقضه ، حيث يقول الله – عز وجل–:﴿وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾[3].

(١) النساء: ١٩.

(٢) سنن ابن ماجه ، كتاب النكاح ، بَابُ حُسْنِ مُعَاشَرَةِ النِّسَاءِ ، حديث رقم ١٩٧٧.

(٣) النساء: ٢١.

وقد دعت الشريعة الإسلامية الزوجين إلى أن ينظر كل منهما إلى شريك حياته بعين الإنصاف ، ويتأمَّل جوانب الخير فيه ، ويتبصَّر مزايا الإبقاء على الحياة الأسرية من السكن والاستقرار النفسي والسلوكي ، حيث يقول سبحانه : ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ الله فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[1]، ويقول نبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (لا يَفْرَكْ - أي : لا يكره - مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً ، إنْ كَرِهَ منها خُلُقًا رَضِيَ منها آخَرَ)[2]، فالكمال لله وحده ، والعصمة لأنبيائه ورسله ، ولله درُّ القائل[3]:

ومَنْ ذا الذي تُرْضَى سجاياهُ كلُّها   كفى المرء نُبلًا أن تُعدَّ معايبُه

ومما لا شك فيه أن الحياة الزوجية قد تعتريها بعض العوارض التي قد تنال من الصفاء الأسري ، لذلك نجد القرآن الكريم قد

---

(١) النساء : ١٩.

(٢) صحيح مسلم ، كتاب الرضاع ، بَابُ الْوَصِيَّةِ بِالنِّسَاءِ ، حديث رقم ١٤٦٩.

(٣) البيت ليزيد بن محمد المهلَّبي . انظر: لباب الآداب لأبي منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي ص: ١٩٠ ، ط دار الكتب العلمية - بيروت/ لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧ م.

وضع العلاج الناجع لها ، وبيَّن أنَّ الخير كله في الصلح والتوافق والتراضي والإحسان ، حيث يقول سبحانه : ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾(1)، وإن تطلب الأمر تدخل أهل الزوجين من أصحاب العقل والحِكمة والخبرة والصلاح والتقوى فليكن تدخلًا كريمًا بنية الإصلاح وإزالة أسباب الخلاف ، حيث يقول تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾(2)، وفي ذلك الأجرُ العظيمُ عند الله (عز وجل)، حيث يقول سبحانه : ﴿لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾(3)، ويقول نبينا (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) :

---

(1) النساء: ١٢٨.

(2) النساء: ٣٥.

(3) النساء: ١١٤.

(أَلا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ وَالصَّدَقَةِ؟ قَالوا: بَلَى ، قَال : إِصْلَاحُ ذَاتِ البَيْنِ ، وفسادُ ذات البين الحالِقَة)[1].

أمَّا إذا وصل الأمر إلى استحكام الشقاق في الحياة الزوجية ، فقد أرشدت الشريعة إلى التروي حتى تهدأ العاصفة ، وتلين القلوب ، وتصفو الأنفس ، ويُحَكَّم العقل ، فتحدث المراجعة ، ويعود الوفـاق ، حرصًا على استمرار الكيان الأسري .

ولا شكَّ أنَّ الطلاق تدمير لبيتٍ أمر الشرع أن يُبنى على أساس من السكن والمودة والرحمة ، كما أنه يحمل العديد من المخاطر والآثار السلبية على الأسرة ، وعلى المجتمع ، ولا سيما الأبناء بما يسبب لهم انفصال الوالدين من مشكلات نفسية ، واجتماعية ، واقتصادية ؛ يفتقدون معها مقومات التربيةِ الحسنةِ ، والتنشئةِ السليمةِ بسبب ذلك التفكك الأسـري ؛ مما يجعلهـم عرضة للاضطـراب النفسي ، والتأخـر الدراسي ، فيسهل انحـرافهم السلـوكي أو استقطابهم وأدلجتهـم من قِبل جماعات التطـرف

(١) سنن أبي داود، كتاب الأدب، بَابٌ فِي إِصْلَاحِ ذَاتِ الْبَيْنِ، حديث رقم ٤٩١٩ .

والعنف والإرهاب ؛ لذا فإن الشيطان يعمل عمله على إغواء أي من الزوجين لتدمير بنيان الأسرة ، يقول نبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (إنَّ إبْلِيسَ يَضَعُ عَرْشَهُ علَى الماءِ ، ثُمَّ يَبْعَثُ سَراياهُ، فأدْناهُمْ منه مَنْزِلَةً أعْظَمُهُمْ فِتْنَةً ، يَجِيءُ أحَدُهُمْ فيَقولُ: فَعَلْتُ كَذا وكَذا، فيَقولُ: ما صَنَعْتَ شيئًا، قال: ثُمَّ يَجِيءُ أحَدُهُمْ فيَقولُ: ما تَرَكْتُهُ حتَّى فَرَّقْتُ بيْنَهُ وبيْنَ امْرَأَتِهِ ، قال: فيُدْنِيهِ منه ويقولُ : نِعْمَ أنْتَ)[1]، مما يتطلب منَّا الفطنة واليقظة والعمل على الإفلات من حبائل الشيطان، فما أجمل أن يسود الوفاق والاحترام والحب بين أفراد الأسرة جميعًا ، حتى يتحقق الترابط والاستقرار بين المجتمع كله.

❊ ❊ ❊

(١) صحيح مسلم ، كتاب صِفَةِ الْقِيَامَةِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، بَابُ تَحْرِيشِ الشَّيْطَانِ وَبَعْثِهِ سَرَايَاهُ لِفِتْنَةِ النَّاسِ وَأَنَّ مَعَ كُلِّ إِنْسَانٍ قَرِينًا ، حديث رقم ٢٨١٣.

مخاطر الهجرة غير الشرعية

إن من عظمة الشريعة الإسلامية أنها أحاطت النفس البشرية بسياجات حفظ وأمان وتكريم ، وجعلت الشريعة حماية النفس أحد أهم الكليات الست والمقاصد التي حرص الشرع عليها، وأولاها عناية خاصة ، فقد حرّم الشرع الشريف الاعتداء على النفس وتعريضها للهلاك ، يستوي في ذلك قتل الإنسان غيره أو قتله نفسه ؛ حيث يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ الله إلا بِالحَقِّ﴾(١)، ويقول (عز وجل) : ﴿وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلى التَّهْلُكَةِ﴾(٢)، ويقول نبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (مَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ ، فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ فِي نَارِ جهَنَّمَ يَتَرَدَّى فِيهِ خَالِدًا مُخَلَّدًا فيها أَبَدًا ، ومَنْ تَحَسَّى سُمًّا فَقَتَلَ نَفْسَهُ ، فَسُمُّه فِي يَدِهِ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فيها أَبَدًا ، ومَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بحَدِيدَةٍ ، فَحَدِيدَتُهُ فِي

---

(١) الأنعام : ١٥١.

(٢) البقرة: ١٩٥.

يَدِهِ يَجأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فيهَا أَبَدًا)[(١)].

وإن من صور الاعتداء على النفس تعريضها للهلكة عن طريق الهجرة غير الشرعية ؛ وهي انتقال الإنسان من بلد إلى بلد آخر بصورة غير قانونية ، عن طريق التسلل خفية ، معرضًا نفسه للموت قتلًا أو غرقًا ، أو إقامته في بلد دون تصريح أو إذن ، أو بالمكث بعد المدة المحددة له قانونًا ، ولا شك أن ذلك يعدُّ خداعًا، نهانا ديننا عنه ، حيث يقول (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلَاحَ فَلَيْسَ مِنَّا ، وَمَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا)[(٢)].

كما أن التحايل لدخول البلاد الأخرى أو الإقامة فيها يعد مخالفة للعهود والمواثيق الدولية التي اتفقت عليها الدول ، والتي يجب

---

(١) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب الطب، بَابُ شُرْبِ السُّمِّ وَالدَّوَاءِ بِهِ وَبِمَا يُخَافُ مِنْهُ وَالخَبِيثِ ، حديث رقم ٥٧٧٨، واللفظ له. وصحيح مسلم، كتاب الإيمان ، بَابُ غِلَظِ تَحْرِيمِ قَتْلِ الْإِنْسَانِ نَفْسَهُ ، وَأَنَّ مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ عُذِّبَ بِهِ فِي النَّارِ ، حديث رقم ١٧٥ .

(٢) صحيح مسلم ، كِتَابُ الْإِيمَانَ ، بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): «مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا»، حديث رقم ١٦٤ .

الوفاء بها ، حيث يقول سبحانه : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالعُقُودِ﴾(١)، ويقول (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (إِنَّ خِيَارَ عِبَادِ الله عِنْدَ الله المُوفُونَ المُطَيِّبُونَ)(٢)، وإذا كانت للبيوت حرمة ، فإن حرمة الدول كحرمة البيوت ، أو أشد ، فكما أنه لا يجوز لأحد أن يدخل بيتًا إلا بإذن صاحبه ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾(٣)، فإنه لا يجوز لإنسان أن يدخل بلدًا إلا بإذن أهلها ، وبالضوابط العالمية المعتبرة التي اتفقت عليها الدول.

إن دخول البلاد بالشكل القانوني أو بتأشيرة الدخول فيه صيانة للنفس ، وحفظ للكرامة ؛ لأن تأشيرة الدخول تعد عهد أمان متبادلًا بين الدولة وزائريها ؛ فكما تضمن الدولة للزائرين الإقامة

---

(١) المائدة : ١.

(٢) المعجم الصغير للطبراني، ٢/ ٢١٠، حديث رقم ١٠٤٥ .

(٣) النور: ٢٧.

الآمنة المستقرة ، فيجب عليهم الحفاظ على أمن هذه الدولة ، وأمن أهلها ، بغض النظر عن ديانتهم ، أو جنسهم ، أو عرقهم ، أو لونهم ، والوفاء بذلك التزام ديني ، وواجب شرعي .

وإذا كان السعي على الرزق والمعاش أمرًا مطلوبًا شرعًا ، حيث يقول تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِزْقِهِ وإليه النُّشُورُ﴾(1)، ويقول نبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ ، وَإِنَّ نَبِيَّ الله دَاوُدَ كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ)(2)، فإن ذلك ينبغي أن يكون بطرق شرعية ، دون إيذاء ، أو تهلكة ، أو ضرر ، أو معصية ، حيث يقول نبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (لا تَموتُ نفسٌ حتى تسْتكمِلَ رِزْقَهَا ، وإنْ أبطأَ عليهَا ، فاتَّقُوا اللهَ ، وأجْمِلُوا في الطَّلَبِ ، ولا يَحْمِلَنَّكم اسْتِبْطاءُ الرِّزقِ أن تَأخُذُوهُ بِمعصيةِ اللهِ ، فإنَّ اللهَ لا

---

(1) الملك: 15.

(2) صحيح البخاري ، كتاب البيوع ، بَابُ كَسْبِ الرَّجُلِ وَعَمَلِهِ بِيَدِهِ ، حديث رقم 2072.

يُنالُ ما عِندَه إلا بِطاعتِه)[1]، وقال (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (.. وَأَنَّ الرُّوحَ الْأَمِينَ نَفَثَ فِي رُوعِي أَنَّهُ لَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا، فَاتَّقُوا اللهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ ، وَلَا يَحْمِلَنَّكُمُ اسْتِبْطَاءُ الرِّزْقِ أَنْ تَطْلُبُوهُ بِمَعَاصِي اللهِ ، فَإِنَّهُ لَا يُدْرَكُ مَا عِنْدَ اللهِ إِلَّا بِطَاعَتِهِ)[2].

❊ ❊ ❊

(١) مسند البزار ، ٧/ ٣١٤، حديث رقم ٢٩١٤.

(٢) شعب الإيمان ، باب الزهد وقصر الأمل ، ١٣/ ١٩ ، حديث رقم ٩٨٩١ .

مفهومُ التنميةِ الشاملةِ

خلق الله (عز وجل) للإنسان كل أسباب الحياة ، فذلل له الأرض ومهَّدها ، وقدَّر فيها أقواتها ، وجعلها صالحة لقيام حياة كريمة تسع الإنسانية كلها ، حيث يقول سبحانه : ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾[1]، ويقول سبحانه وتعالى : ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾[2]، ويقول تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا*أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا * وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا * مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾[3].

ولقد أمر الله تعالى الإنسان أن يأخذ بأسباب العلم ليعمر الأرض ، ويستثمر الموارد الطبيعية التي خلقها الله سبحانه في الكون ، فيحقق التنمية الشاملة التي تعود بالنفع على الفرد والمجتمع ، حيث يقول تعالى: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ

(١) الرحمن: ١٠.

(٢) الذاريات: ٤٨.

(٣) النازعات: ٣٠ - ٣٣.

الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾(١)، ويقول سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾(٢)، ويقول (عز وجل): ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾(٣).

ولا شك أن تحقيق الأمن من أهم أسس التنمية الشاملة ، حيث ربط الحق سبحانه وتعالى بين الأمن والرزق برباط وثيق ، فقال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾(٤)، ويقول سبحانه: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾(٥)، وقد

---

(١) إبراهيم: ٣٢ ، ٣٣.

(٢) لقمان: ٢٠.

(٣) الجاثية: ١٣.

(٤) القصص : ٥٧.

(٥) قريش: ١-٤.

قدَّم سيدنا إبراهيم – عليه السلام– الأمن على الطعام والشراب في دعائه ، حيث يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آَمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾(١)، ولا تقوم الحياة ولا يتحقق الرخاء ولا تتقدم الأمم إلا بالأمن ، يقول الله سبحانه على لسان نبي الله يوسف – عليه السلام – ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ﴾(٢)، والأمن من أجلِّ نعم الله (عز وجل)، حيث يقول نبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ مُعَافًى فِي جَسَدِهِ عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا)(٣).

كما تتحقق التنمية الشاملة باستثمار الطاقات البشرية ، وخاصة الشباب ، من حيث إعدادهم وتنمية مواهبهم وحسن تأهيلهم، والدفع بهم في مجالات العمل المختلفة ، ولقد أولى النبي (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) الشباب اهتمامًا كبيرًا ، ومنحهم الثقة ، وتحملهم

---

(١) البقرة : ١٢٦.

(٢) يوسف :٩٩.

(٣) سنن الترمذي ، أَبْوَابُ الزُّهْدِ ، بابٌ منه ، حديث رقم ٢٣٤٦.

المسئولية ، وكان الحسن البصري – رحمه الله– يقول: قدّموا إلينا شبابكم ؛ فإنهم أفرغ قلوبًا ، وأحفظ لما سمعوا ، فمن أراد الله أن يُتِمّه له أتمّه.

إن تحقيق التنمية الشاملة يتطلب عملًا نافعًا جادًّا يشمل جميع مجالات الحياة ، زراعة ، حيث يقول نبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا إِلاَّ كَانَ مَا أُكِلَ مِنْهُ لَهُ صَدَقَةٌ ، وَمَا سُرِقَ مِنْهُ لَهُ صَدَقَةٌ ، وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ مِنْهُ فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ ، وَمَا أَكَلَتِ الطَّيْرُ فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ ، وَلاَ يَرْزَؤُهُ أَحَدٌ – يأخذ منه أحد فينقص– إِلاَّ كَانَ لَهُ صَدَقَةٌ)(١)، أو تجارةً ، حيث يقول نبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (التَّاجِرُ الأمينُ الصَّدُوقُ مع النَّبِيِّينَ والصِّدِّيقين والشُّهداء)(٢)، أو حرفة وصنعة ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى عن سيدنا داود –

(١) صحيح مسلم ، كتاب المساقاة ، بَابُ فَضْلِ الْغَرْسِ وَالزَّرْعِ ، حديث رقم ١٥٥٢.

(٢) سنن ابن ماجه ، كِتَابُ التِّجَارَاتِ ، بَابُ الْحَثِّ عَلَى الْمَكَاسِبِ ، حديث رقم ٢١٣٩ .

عليه السلام - : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾[1]، ويقول سبحانه : ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾[2]، ويقول نبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (ما أكَلَ أحدٌ طعامًا قطُّ خيرًا مِنْ أَنْ يَأْكُل مِنْ عَمَلِ يَدِهِ ، وإنَّ نبيَّ الله دَاود - عَلَيْه السَّلام- كَانَ يأكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِه)[3].

ثم إن التنمية الشاملة هي التي تعم أبناء الوطن وربوعه ؛ مُدنه وقُرَاه ، حضره وبدوه ، عواصمه وحدوده ، وهي ما تقوم به الدولة المصرية من خلال إنشاء المدن الجديدة ، وتطوير العشوائيات ، والعناية بالمدن القديمة ، والمشروعات القومية المتعددة ، ومن أهمها مبادرتي : تنمية الريف المصري ، وحياة كريمة.

---

(١) سبأ: ١٠.

(٢) الأنبياء: ٨٠.

(٣) صحيح البخاري ، كتاب البيوع ، بَابُ كَسْبِ الرَّجُلِ وَعَمَلِهِ بِيَدِهِ ، حديث رقم٢٠٧٣.

إنَّ التنمية الشاملة لا يمكن أن تتحقق بدون نظام عام يضبط للناس حياتهم وفق قوانين تحفظ المجتمع من الفوضى ، وما تقدمت دولة من الدول إلا باتباعها النظام ، واحترامها القوانين ، والتزامها بتطبيقها على الجميع ، وتعاون الجميع في الالتزام بهذه القوانين .

*　　　*　　　*

الزكاة والصدقات ودورهما في التنمية المجتمعية

إن الشريعة الإسلامية وضعت للناس نظامًا اجتماعيًّا قويًا ، أساسه التراحم ، والترابط، والتكافل، حيث يقول نبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ ، وَتَرَاحُمِهِمْ ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى)(١)، ويقول (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (إِنَّ الأَشْعَرِيِّينَ إِذَا أَرْمَلُوا فِي الغَزْوِ ، أَوْ قَلَّ طَعَامُ عِيَالِهِمْ بِالْمَدِينَةِ جَمَعُوا مَا كَانَ عِنْدَهُمْ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ ، ثُمَّ اقْتَسَمُوهُ بَيْنَهُمْ فِي إِنَاءٍ وَاحِدٍ بِالسَّوِيَّةِ ، فَهُمْ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ)(٢).

ومن هنا فقد شرع الإسلام الزكاة ، وجعلها من أركانه ، وحثَّ

---

(١) سبق تخريجه ، ص ١٩.

(٢) متفق عليه: صحيح البخاري ، كتاب الشركة ، بَابُ الشَّرِكَةِ فِي الطَّعَامِ وَالنِّهْدِ وَالعُرُوضِ ، حديث رقم ٢٤٨٦، وصحيح مسلم ، كتاب فضائل الصحابة (رضوان الله عليهم) ، باب فضائل الأشعريين (رضي الله عنهم) ، حديث رقم ٢٥٠٠.

على الصدقات وجعلها من أعظم أبواب الخير ، بما يسهم في سد حوائج المحتاجين ، وتفريج كربهم ، حيث يقول الحق سبحانه: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾(١)، ويقول سبحانه: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾(٢)، ويقول نبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لا إله إلا اللهَ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالحَجِّ وَصَوْمِ رَمَضَانَ)(٣).

والمتأمل في القرآن الكريم يجد أن الله (عز وجل) قرن الزكاة في كثير من المواضع بأعظم الفرائض وأجلِّها وأعلاها مكانة ، وهي الصلاة تعظيمًا لشأنها ، وذلك ترغيبًا في أدائها ، حيث يقول الحق

---

(١) التوبة: ١٠٣.

(٢) سبأ: ٣٩.

(٣) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب الإيمان، بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَى خَمْسٍ ، حديث رقم ٨ ، واللفظ له، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان ، باب قول النبي - صلى الله عليه وسلم- بني الإسلام على خمس، حديث رقم ٢١ .

سبحانه: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ الله إِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(١)، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿الذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾(٢).

كما جاءت الشريعة بالتحذير من التهاون في أداء الزكاة ، حيث يقول سبحانه: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ الله مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلله مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالله بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾(٣)، ويقول جل شأنه: ﴿وَالذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ الله فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أليم * يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾(٤)، ويقول ابن عباس (رضي الله عنهما) : " ثلاث

---

(١) البقرة: ١١٠.

(٢) النمل: ٣.

(٣) آل عمران: ١٨٠.

(٤) التوبة : ٣٤، ٣٥.

آيات نزلت مقرونة بثلاث لا يقبل إحداها بغير قرينتها. إحداها: قوله (عز وجل): ﴿أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُول﴾[1]، فمن أطاع الله ولم يطع الرسول لم يقبل منه ، والثانية: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾[2]، فمن صلى ولم يزكِّ لم يُقبَل منه ، والثالثة: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾[3]، فمن شكر لله ولم يشكر لوالديه لم يقبل منه"[4].

ولا شك أنَّ الصدقات تدعم دور الزكاة في تحقيق دورها المجتمعي ؛ لذلك جاء الشرع الحنيف بالحث عليها والترغيب فيها؛ حيث قال نبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (إِنَّ فِي المَال لَحَقًّا سِوَى الزَّكَاةِ) ، ثُمَّ تَلا قول الله تعالى : ﴿لَيْسَ البِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ وَلَكِنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ بِالله وَاليَوْمِ الآخِرِ وَالمَلَائِكَةِ وَالكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى المَال عَلَى حُبِّهِ ذَوِي القُرْبَى وَاليَتَامَى

(١) آل عمران : ١٣٢.

(٢) البقرة : ٤٣.

(٣) لقمان: ١٤.

(٤) تفسير بحر العلوم للسمرقندي ، ١/ ٦٩ .

وَالمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ...﴾(١).

إن للزكاةِ والصدقاتِ ثمراتٍ عظيمةً ، منها : حصول البركة والأجر العظيم ؛ حيث يقول سبحانه : ﴿ يَمْحَقُ الله الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾(٢)، ويقول تعالى : ﴿إِنَّ الذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(٣)، ويقول (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ العِبَادُ فِيهِ إلا مَلَكَانِ يَنْزِلَانِ ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللهمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، وَيَقُولُ الآخَرُ: اللهمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا)(٤).

---

(١) سنن الترمذي، أبواب الزكاة ، بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ فِي المَالِ حَقًّا سِوَى الزَّكَاةِ، حديث رقم ٦٥٩، والآية في سورة البقرة: ١٧٧.

(٢) البقرة: ٢٧٦.

(٣) البقرة: ٢٧٧.

(٤) متفق عليه: صحيح البخاري ، كتاب الزكاة ، بَابُ قَوْلِ الله تَعَالَى:﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى، وَصَدَّقَ بِالحُسْنَى ، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾[الليل: -٧] «اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقَ مَالٍ خَلَفًا» ، حديث رقم ١٤٤٢، وصحيح مسلم ، كتاب الزكاة ، باب في المنفق والممسك ، حديث رقم ١٠١٠ .

ومنها: أنها سبب من أسباب العافية ، يقول نبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (دَاوُوا مَرْضَاكُمْ بِالصَّدَقَةِ ، وَحَصِّنُوا أَمْوَالَكُمْ بِالزَّكَاةِ ، وَأَعِدُّوا لِلْبَلَاءِ الدُّعَاءَ)[1]، ويقول (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (إِنَّ الصَّدَقَةَ لَتُطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ وَتَدْفَعُ مِيتَةَ السُّوءِ)[2].

وللزكاة دور كبير في تحقيق التوازن المجتمعي وتحقيق التنمية المجتمعية ، ويزداد الأمر اتساعًا في مجال الصدقات ، سواء أكانت صدقات جارية ، أم صدقات عامة ، أم في صورة مشروعات ومبادرات ، كمشروع صكوك الأضاحي ، أو صكوك الإطعام ، أو مشروعات الكساء ، أو توفير فرص العمل ، وغير ذلك من وجوه البر التي تسهم في تحقيق الرعاية الإنسانية للأسر والمناطق الأولى بالرعاية.

---

(١) السنن الكبرى للبيهقي ، كتاب الجنائز ، بَابُ وَضْعِ الْيَدِ عَلَى الْمَرِيضِ ، وَالدُّعَاءِ لَهُ بِالشِّفَاءِ ، وَمُدَاوَاتِهِ بِالصَّدَقَةِ ، حديث رقم ٦٥٩٣.

(٢) سنن الترمذي ، أبواب الزكاة ، بَابُ مَا جَاءَ فِي فَضْلِ الصَّدَقَةِ ، حديث رقم ٦٦٤.

فما أحوجنا إلى تحقيق معاني البر والتكافل المجتمعي ، حتى تَسُود المحبَّة، ويعم الإخاء.

* * *

فروض الكفايات
ودورها في تحقيق التوازن المجتمعي

إن المتأمل في أحكام الشريعة الإسلامية يجد أنها جاءت لتحقيق مصالح العباد ، والسُّمُوّ بالنفس البشرية إلى أعلى درجات الرقي والتحضر وحسن التعامل مع الآخرين ، عن طريق الالتزام بمنهج الله -عز وجل- وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم) ، ومن ثَمَّ يتمكن الإنسان من القيام بالمهمة التي خلقه الله - عز وجل- من أجلها ، ألا وهي عبادة الله وحده لا شريك له ، وعمارة الأرض ، قال سبحانه: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾(١).

ومن جملة الأحكام الشرعية التي جاء بها الإسلام لتحقيق الخير للإنسان ما يعرف بفرض العين ، وفرض الكفاية ، أما فرض العين فهو ما يجب وجوبًا عينيًّا لازمًا على شخص معين بذاته بحسب قدرته واستطاعته ، لا يقوم غيره فيه مقامه ، ويمثل له علماء

---

(١) هود: ٦١.

الشريعة بالصلاة ، والصيام ، والزكاة ، والحج ، فلا يجزئ صيام الأمة كلها عن إفطار من أفطر ، ولا يغني عنه صيامها من الله شيئًا ، وكذلك الصلاة والزكاة ، ففرض العين إذا أقامه المسلم نال ثوابه وحده ، وإذا تكاسل عنه تحمل إثمه وحده .

وأما فرض الكفاية فهو لا يتعلق بشخص بعينه ؛ بل يتعلق بجميع أفراد المجتمع ؛ لكن إذا قام به بعض الناس سقط الإثم عن الباقين ، وإن لم يقم به أحد أثموا جميعًا ، ومن ثَمَّ ففرض الكفاية هو ما يجب على المجتمع أن يقوم به من إنفاق المال ، أو بذل الجهد لدفع الضرر عن الفقراء والمساكين وغير القادرين ، يقول الحق سبحانه: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1].

فالكل في سفينة واحدة ، ولكي تصل إلى برِّ الأمان لابد من تكاتف الجميع وإلا هلكوا جميعًا ، يقول نبينا (صلى الله عليه

---

(١) آل عمران: ١٠٤.

وسلم): (مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاَهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا : لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا ، وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا ، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا ، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا)(١).

وإذا كان بعض الفقهاء القدامى قد مثلوا لفروض الكفاية ببعض الأمور ، كردِّ السلام ، وتشميت العاطس ، واتباع الجنائز ، وتغسيل الميت ، وتجهيزه ، وتكفينه والصلاة عليه ، ونحو ذلك ، فإنما ذكروا ذلك كله على سبيل المثال لا الحصر ، حيث إن مفهوم فروض الكفاية يتسع لكل ما فيه صلاح البلاد والعباد .

على أن كثيرًا من الناس يعتقدون أنهم أدوا ما عليهم بدفع زكاة أموالهم ، وغاب عنهم ما في المجتمع من أيتام وأرامل، وفقراء

---

(١) صحيح البخاري ، كِتَاب الشَّرِكَةِ ، بَابٌ هَلْ يُقْرَعُ فِي القِسْمَةِ وَالِاسْتِهَامِ فِيهِ ، حديث رقم ٢٤٩٣.

ومساكين ، ومرضى ومنكوبين ، فليعلم الجميع أنه إذا أصيب أحد بكرب ، أو احتاج شيئًا وجب عليهم أن يدفعوا عنه ذلك الكرب ، أو يقضوا له تلك الحاجة متضامنين ، فإذا قام به واحد منهم سقط الحرج عن الباقين ، وإذا تخلف الجميع بعد علمهم أثموا جميعًا.

إن الإسلام لا يَعْرِف الفردية أو الأنانية أو السلبية ، وإنما يعرف الإخاء الصادق ، والعطاء الكريم ، والتعاون على البِرِّ والتقوى ، وهذا ما دعا إليه نبينا (صلى الله عليه وسلم) فعن أَبِى سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ – رضي الله عنه – قَالَ : بَيْنَمَا نَحْنُ فِي سَفَرٍ مَعَ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) إِذْ جَاءَ رَجُلٌ عَلَى رَاحِلَةٍ لَهُ قَالَ: فَجَعَلَ يَصْرِفُ بَصَرَهُ يَمِينًا وَشِمَالًا ، فَقَالَ رَسُولُ الله (صلى الله عليه وسلم): (مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلُ ظَهْرٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لاَ ظَهْرَ لَهُ ، وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ مِنْ زَادٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لاَ زَادَ لَهُ)، قَالَ: فَذَكَرَ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ مَا ذَكَرَ حَتَّى رَأَيْنَا أَنَّهُ لاَ حَقَّ لأَحَدٍ مِنَّا فِي فَضْلٍ)[١].

---

(١) صحيح مسلم ، كِتَابُ اللُّقَطَةِ ، بَابُ اسْتِحْبَابِ الْمُؤَاسَاةِ بِفُضُولِ الْمَالِ ، حديث رقم ١٧٢٨.

ولقد ضرب الأشعريون أروع الأمثلة في التكافل المجتمعي فاستحقوا ثناء رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، فعَنْ أَبِي مُوسَى - رَضِيَ الله عَنْهُ- قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (إِنَّ الأَشْعَرِيِّينَ إِذَا أَرْمَلُوا - نَفِدَ زادهم - فِي الغَزْوِ ، أَوْ قَلَّ طَعَامُ عِيَالِهِمْ بِالْمَدِينَةِ جَمَعُوا مَا كَانَ عِنْدَهُمْ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ ، ثُمَّ اقْتَسَمُوهُ بَيْنَهُمْ فِي إِنَاءٍ وَاحِدٍ بِالسَّوِيَّةِ، فَهُمْ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ)(١).

ومن فروض الكفاية: قضاء حوائج الناس ، فقضاء حوائجهم والقيام بمتطلبات حياتهم من الواجبات الشرعية والوطنية ، يقول (صلى الله عليه وسلم): (مَا آمَنَ بِي مَنْ بَاتَ شَبْعَانًا وَجَارُهُ جَائِعٌ إِلَى جَنْبِهِ وَهُوَ يَعْلَمُ بِهِ)(٢)، وفي حديث آخر نرى النبي (صلى الله عليه وسلم) يقدم قضاء حوائج الناس على الاعتكاف في مسجده ، حيث يقول: (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى الله تَعَالَى أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ ، وَأَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى الله تَعَالَى سُرُورٌ تُدْخِلُهُ عَلَى

---

(١) سبق تخريجه ، ص ٤٢.

(٢) المعجم الكبير للطبراني ، ١/ ٢٥٩، حديث رقم ٧٥١.

مُسْلِمٍ ، أَوْ تَكَشِفُ عَنْهُ كُرْبَةً ، أَوْ تَقْضِي عَنْهُ دَيْنًا ، أَوْ تَطْرُدُ عَنْهُ جُوعًا ، وَلَأَنْ أَمْشِيَ مَعَ أَخِي فِي حَاجَةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ - يَعْنِي مَسْجِدَ الْمَدِينَةِ شَهْرًا - وَمَنَ كَفَّ غَضَبَهُ سَتَرَ اللهُ عَوْرَتَهُ ، وَمَنْ كَظَمَ غَيْظَهُ ، وَلَوْ شَاءَ أَنْ يُمْضِيَهُ أَمْضَاهُ مَلَأَ اللهُ قَلْبَهُ رَجَاءً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ مَشَى مَعَ أَخِيهِ فِي حَاجَةٍ حَتَّى يَتَهَيَّأَ لَهُ أَثْبَتَ اللهُ قَدَمَهُ يَوْمَ تَزُولُ الْأَقْدَامِ)(١).

كذلك من فروض الكفاية: العمل على تخريج المتميزين من الأطباء والمهندسين والعلماء المتخصصين بما يحقق كفاية المجتمع في شتى المجالات العلمية والإنتاجية على حد قول الإمام الغزالي في الإحياء: " أما فرض الكفاية فهو علم لا يستغنى عنه في قوام أمور الدنيا ،كالطب إذ هو ضروري في حاجة بقاء الأبدان ، وكالحساب فإنه ضروري في المعاملات وقسمة الوصايا والمواريث وغيرهما، وهذه هي العلوم التي لو خلا البلد عمن يقوم بها دخل أهل البلد في حرج شديد ، وإذا قام بها واحد كفى وسقط الفرض عن

(١) المعجم الكبير للطبراني، ١٢/ ٤٥٣، حديث رقم ١٣٦٤٦.

الآخرين ، ... وكذلك فإن أصول الصناعات أيضا من فروض الكفايات"[1].

فلو خلا بلد من هذه العلوم والصناعات تعرض أهل هذا البلد للهلاك ، فإن الذي أنزل الداء أنزل الدواء ، ومن لا يملك قوته وسلاحه وعتاده ودواءه لا يملك إرادته ، ومن ثمَّة وجب علينا جميعًا وجوبًا دينيًّا ووطنيًّا أن نعمل وبمنتهى الهمة والجد على تحقيق الكفاية لوطننا في جميع المجالات حتى نصبح أمة منتجة ، أمة مصدرة ، أمة نافعة لنفسها وللإنسانية ، وليست عالة على غيرها ، لا في طعامها ، ولا في شرابها ، ولا في علاجها ، فعلاج مرضى المجتمع أمانة في أعناق أطبائه ، ومحو أمية المجتمع أمانة في أعناق مُعلِّميه ، وحفظ أمنه أمانة في أعناق جيشه وشرطته، وعدل المجتمع أمانة في أعناق قضاته ، ففروض الكفايات تقوم على المسئولية التضامنية لأفراد المجتمع ، كل في مجاله وميدانه ، يقول سبحانه

(١) إحياء علوم الدين ، لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفى: ٥٠٥هـ)، ١/ ١٦، ط دار المعرفة بيروت. بتصرف .

وتعالى : ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[1].

ومن أمثلة فروض الكفاية التي تسهم في سد حاجات المجتمع: السعي إلى تحقيق القوة في جميع جوانب حياتنا الإيمانية ، والعلمية ، والفكرية ، والاقتصادية ، والإنتاجية ، يقول تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[2]، ولم يحدد الله تعالى نوع هذه القوة ، فهي شاملة لكل قوة تصلح الأمة ، سواء أكانت قوة علمية أم جسدية ، أم غير ذلك.

ومن ثمَّ فإن فروض الكفاية تتعلق بكل حاجات المجتمع ، وإحياء الواجب الكفائي يسهم في تحقيق التكافل والتوازن المجتمعي من جهة ، وسد حاجات الوطن الأساسية والضرورية من جهة أخرى ، فما أعظم ديننا لو فهمناه فهمًا صحيحًا وطبقناه

(١) المائدة : ٢.

(٢) الأنفال : ٦٠.

تطبيقًا واعيًا ؛ فهو حريص أشد الحرص على ما فيه صالح البلاد والعباد والإنسانية .

❊ ❊ ❊

الوقاية خير من العلاج

إن من عظمة الشريعة الإسلامية أنها أمرت بكل خير ينفع الإنسان ، ونهت عن كل شر يضره ، والمتأمل في النصوص الشرعية يجد أنها أولت صحة الإنسان عناية خاصة ، وأمرت بالحفاظ عليها، كما دعت إلى اجتناب كل ما يمكن أن يكون سببًا في مرض الإنسان أو ضعفه ، حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾[1]، ويقول نبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) (لا ضَرَرَ وَلا ضِرَار)[2]، ويقول (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ ، واسْتَعِنْ بِاللهِ وَلاَ تَعْجِزْ)[3].

(١) البقرة : ١٩٥.

(٢) سنن ابن ماجه ، كِتَابُ الْأَحْكَامِ ، بَابُ مَنْ بَنَى فِي حَقِّهِ مَا يَضُرُّ بِجَارِهِ ، حديث رقم ٢٣٤١.

(٣) صحيح مسلم ، كتاب القدر ، بَابٌ فِي الْأَمْرِ بِالْقُوَّةِ وَتَرْكِ الْعَجْزِ وَالِاسْتِعَانَةِ بِاللهِ، حديث رقم ٢٦٦٤.

ومما لا شك فيه أن الصحة والعافية من أعظم نعم الله تعالى على عباده ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ ، وَالفَرَاغُ)[1]، ويقول (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ):(اغتنِمْ خمسًا قبل خمسٍ: شبابَك قبل هَرَمِك، وصِحَّتَك قبل سَقَمِك ، وغناك قبل فقرِك ، وفراغَك قبل شُغلِك ، وحياتَك قبل موتِك)[2]، ويقول (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (اسْأَلُوا اللهَ العَفْوَ وَالعَافِيَةَ ، فَإِنَّ أَحَدًا لَمْ يُعْطَ بَعْدَ اليَقِينِ خَيْرًا مِنَ العَافِيَةِ)[3].

ومن صور الحفاظ على نعمة الصحة والعافية التي حرص عليها الإسلام: الأخذ بأسباب الوقاية ، فالوقاية خير من العلاج ، بل إن الوقاية هي العلاج ، وقد قالوا: درهمُ وقايةٍ خيرٌ من قنطار علاجٍ، ومن أساليب الوقاية التي حث عليها الإسلام ، وجعلها ضرورة شرعية لحماية الإنسان من الأمراض: الاهتمام بالنظافة العامة،

(١) صحيح البخاري، كِتَابُ الرِّقَاقِ، بَاب لاَ عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الآخِرَةِ، حديث رقم٦٤١٢.

(٢) السنن الكبرى للنسائي، كِتَابُ الْمَوَاعِظِ ، حديث رقم١١٨٣٢ .

(٣) سنن الترمذي، أَبْوَابُ الدَّعَوَاتِ، بابٌ منه، حديث رقم ٣٥٥٨.

حيث يقول سبحانه: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾[1]، ويقول (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ...)[2]، ويقول (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (طَهِّرُوا أَفْنِيَتَكُمْ)[3]، والأفنية تشمل: فناء البيت، وفناء المدرسة، والمصنع، والطريق، وغيرها.

وكما حرص الإسلام على النظافة العامة، فقد حرص على النظافة الشخصية، حيث يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾[4]، ويقول نبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (إِذَا اسْتَيْقَظَ أَحَدُكُمْ مِنْ نَوْمِهِ فَلا يَغْمِسْ يَدَهُ فِي الإِنَاءِ حَتَّى يَغْسِلَهَا ثَلاثًا)[5]، كما أنه يستحب

(١) البقرة: ٢٢٢.

(٢) صحيح مسلم، كتب الطهارة، بَابُ فَضْلِ الْوُضُوءِ، حديث رقم ٢٢٣.

(٣) المعجم الأوسط للطبراني، ٤/ ٢٣١، حديث رقم ٤٠٥٧.

(٤) المائدة: ٦.

(٥) صحيح مسلم، كتب الطهارة، بَابُ كَرَاهَةِ غَمْسِ الْمُتَوَضِّئِ وَغَيْرِهِ يَدَهُ الْمَشْكُوكَ فِي نَجَاسَتِهَا فِي الْإِنَاءِ قَبْلَ غَسْلِهَا ثَلَاثًا، حديث رقم ٢٧٨.

غسل اليدين قبل الأكل وبعده ، فقد كان نبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) إذا أراد أن يأكل أو يشرب غسل يديه ، ويقول (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي- أَوْ عَلى النَّاسِ- لَأَمَرْتُهُمْ بِالسِّواكِ مَعَ كُلِّ صَلَاةٍ)(١).

ومن أساليب الوقاية: تجنب مخالطة المرضى بأمراض معدية ، وعزلهم عن الأصِحَّاء ، يقول (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (إِذَا سَمِعْتُمْ بِالطَّاعُونِ بِأَرْضٍ ، فَلَا تَدْخُلُوهَا ، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ فِيهَا ، فَلَا تَخْرُجُوا مِنْهَا)(٢)، ويقول (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (لا يُورِدَنَّ مُمْرِضٌ علَى مُصِحٍّ)(٣)، ومن هنا فينبغي لمن يشعر بأعراض مَرَضِية أن يبتعد عن مخالطة الناس ، حتى يمنَّ الله تعالى عليه بالشفاء ، كما يجب اتخاذ كل الإجراءات الاحترازية لمنع انتشار الأمراض ، ومنها: منع المعانقة والتقبيل ، وتقليل المصافحة ، والبعد عن التجمعات.

---

(١) صحيح البخاري، كِتَابُ الجُمُعَةِ، بَابُ السِّوَاكِ يَوْمَ الجُمُعَةِ، حديث رقم ٨٨٧.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الطب، بَابُ مَا يُذْكَرُ فِي الطَّاعُونِ، حديث رقم ٥٧٢٨.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الطب، بَابُ لاَ هَامَةَ، حديث رقم ٥٧٧١.

إن الوقاية لا تتنافى مع الإيمان والتوكل على الله سبحانه ، فقد قال نبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) للأعرابى الذي سأله عن ناقته: أعقِلُها وأتوَكَّلُ أو أطلِقُها وأتوَكَّلُ؟ فقال (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ)[1]، والتوازن بين الأخذ بالأسباب والتسليم بقضاء الله وقدره لا يقف عند حدود عقل الناقة مع حسن التوكل، فنحن في ظروفنا الحالية نقول: ارتد الكمامة وتوكل على الله ، نظف يديك وتوكل على الله ، خذ بجميع الإجراءات الاحترازية وتوكل على الله ، وهكذا في سائر الأمور الحياتية ، وبهذا نكون قد فهمنا وحققنا وطبقنا معنى قول نبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ)[2].

* * *

---

(١) سنن الترمذي ، أَبْوَابُ صِفَةِ الْقِيَامَةِ وَالرَّقَائِقِ وَالْوَرَعِ ، باب منه ، حديث رقم ٢٥١٧.

(٢) المصدر السابق .

حق الوطن والمشاركة في بنائه

إن حق الوطن على أبنائه من أوجب الحقوق وآكدها ، والمشاركة في بنائه ورقيّه من أعظم المهمات وأشرفها ؛ فالوطن أحد الكليات الست التي أحاطها الشرع الحنيف بسياجات عظيمة من الحفظ والصيانة ، فالحُر الكريم يفتدي وطنه بالنفس والنفيس ، ولله در القائل(١):

وَللأَوْطَـانِ فِي دَمِ كُـلِّ حُـرٍّ   يَـدٌ سَـلَفَتْ وَدَيْـنٌ مُسْتَـحَقُّ

ومما لا شك فيه أن من يفهم دينه فهمًا صحيحًا يدرك أن العلاقة بين الدين والدولة ليست علاقة عداء ولن تكون ، وأن فهم صحيح الدين يسهم وبقوة في بناء واستقرار دولة عصرية حديثة تقوم على أسس وطنية راسخة ، كما أن الدولة الرشيدة لا يمكن أن تصطدم

---

(١) من قصيدة (ثمن الحرية) لأمير الشعراء أحمد شوقي، و التي قيلت في حفلة أقيمت لإعانة منكوبي سوريا بمسرح حديقة الأزبكية في يناير سنة (١٩٢٦م) بعد أن قصف الفرنسيون دمشق وخلفوا فيها الدمار، والتي مطلعها: سلام من صبا بردى أرق ... ودمع لا يكفكف يا دمشق . موسوعة الشعر الإسلامي ١ / ١٢٠١ .

بالفطرة الإنسانية التي تبحث عن الإيمان الرشيد الصحيح.

وقد جسَّد نبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) معنى حب الوطن في قوله (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) حين أخرجه قومه من مكة المكرمة، فخاطبها قائلا: (مَا أَطْيَبَكِ مِنْ بَلْدَةٍ وَأَحَبَّكِ إِلَيَّ ، وَلَوْلاَ أَنَّ قَوْمِي أَخْرَجُونِي مِنْكِ مَا سَكَنْتُ غَيْرَكِ)(١).

فحب الوطن والانتماء إليه قيمة إسلامية أصيلة ، وفطرة جبلت عليها الطباع السليمة ، وأمر يوجبه الشرع الحنيف ، وتفرضه الوطنية المخلصة ، فالانتماء للوطن يوجب على أبنائه أن يعتزوا به، وأن يتكاتفوا جميعًا للحفاظ عليه ، وأن يُسهموا بقوة في نهضته بالعلم والعمل والإنتاج ، والمرابطة على ثغوره لتأمين حدوده وردع كل معتدٍ، والمشاركة في الأعمال التطوعية التي تخدم المجتمع.

ولله در القائل(٢):

بِـــلادٌ مـاتَ فِتيَتُهـــا لِتَحـيا   وَزالـــوا دونَ قَومِهِـمُ لِيَبـقُوا

---

(١) سنن الترمذي، أبواب المناقب، بَابٌ فِي فَضْلِ مَكَّةَ ، حديث رقم ٣٩٢٦.

(٢) من قصيدة (ثمن الحرية) لأمير الشعراء أحمد شوقي ، مرت في الصفحة السابقة .

إن الولاء للوطن والانتماء له يحتِّم على الإنسان أن يكون صادقًا في أعماله ، لا يَكْذِب وطنه ، ولا يخون أهله ، ولا يغشهم ، ولا يخدعهم ، ولا يتآمر عليهم ، ولا يبيع قضاياهم بأي ثمن ، فالوطنية الحقيقية بناء لا هدم ، إعمار لا تخريب ، إن الوطنية الحقيقية فن صناعة الحياة وعمارة الكون ، لا فن صناعة الموت والفساد والإفساد ، حيث يقول سبحانه : ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[1]، ويقول (عز وجل): ﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا﴾[2].

والولاء للوطن والانتماء له مسئولية مشتركة بين الجميع ، وكلٌّ مسئول أمام الله تعالى بحسب موقعه ومقدار الأمانة الملقاة على عاتقه ، فنحن في سفينة واحدة ، والنبي (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يقول: (مَثَلُ القَائِمِ عَلَى حُدُودِ الله وَالوَاقِعِ فِيهَا ، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاَهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا،

(١) هود : ٦١.

(٢) الأعراف: ٥٦.

فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ المَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا ، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا ، وَنَجَوْا جَمِيعًا)[1].

كما أن للمؤسسات دورها وعليها مسئوليتها في تحقيق الولاء والانتماء للوطن ؛ فللمؤسسات الدينية دورها في بيان أن مصالح الأوطان لا تنفك عن مقاصد الأديان ، وأن العمل على تقوية شوكة الدولة الوطنية وترسيخ دعائمها مطلب شرعي ووطني ، وكذلك المؤسسات التعليمية والتربوية التي تغرس في أبنائنا الولاء والانتماء للوطن ، وتدربهم عمليًّا على حبه ، وتنشئهم على القيم النبيلة ، ومكارم الأخلاق .

إن الولاء والانتماء يتجسد عمليًّا من خلال الأعمال التي من شأنها رقيه واستقراره ، فحب الوطن وحسن الانتماء إليه والولاء له

---

(١) صحيح البخاري ، كِتَاب الشَّرِكَةِ ، بَابٌ هَلْ يُقْرَعُ فِي القِسْمَةِ وَالِاسْتِهَامِ فِيهِ، حديث رقم ٢٤٩٣.

والحرص على رفعة شأنه يحمِّل صاحبه أمانة ومسئولية تجعله يتفانى - بل ينصهر - ليرفع راية بلده عاليًا ، كل في مجاله وميدانه ، العالم بعلمه ، والطبيب بطبه ، والعامل بجهده وعرقه ، والصانع بمهارته وصنعته ، والجندي بفدائه وتضحيته ، وسهره على حماية وطنه ، والمسئول بتفانيه في خدمة وطنه .

على أن حب الوطن ليس مجرد كلماتٍ تقال ، أو شعاراتٍ ترفع؛ إنما هو سلوكٌ وتضحياتٌ ، وحقوق تؤدى ، من أعلاها وأشرفها: التضحية في سبيل الوطن وحمايته من أي خطر يتهدده ، أو يقوض بنيانه ، أو يزعزع أركانه ، أو يروع مواطنيه ، فحماية الأوطان من صميم مقاصد الأديان ، وهذا سبيل الشرفاء ، والعظماء الأوفياء، فالوطنية الحقيقية فداء ، وتضحية ، واعتزاز بالوطن وترابه ، واحترام لعَلَمِهِ ونشيده وسائر مقدراته .

الوطنية الحقيقية تقتضي الحفاظ على المال العام ، فهو ركيزة أساسية للدولة ، تدير به شئونها ، وتقيم مؤسساتها ، وتقدم خدماتها ، وترتقي بأفرادها ومجتمعها ، وتسهم من خلاله في بناء

حضارتها ، يقول نبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (إِنَّ رِجَالا يَتَخَوَّضُونَ فِي مَال الله بِغَيْرِ حَقٍّ فَلَهُمُ النَّارُ يَوْمَ القِيَامَةِ)(١)، والمال العام أحق بالحفاظ عليه.

الوطنية الحقيقية تقتضي دعم منتجات الوطن صناعة ، وزراعة ، وتجارة ، وتسويقًا ؛ بما ينمي قيمة الولاء والانتماء للوطن ، ويحقق الرخاء الاقتصادي لأبنائه ؛ فكلما بذلنا الجهد عملًا وإتقانًا عظمنا من قدرات بلدنا الاقتصادية ، وكلما أقبلنا على منتجات الوطن بيعًا وشراءً وتجارةً كلما أعطينا المنتجين والمصنعين الفرصة لرفع القدرة التنافسية ، وأسهمنا في توفير المزيد من فرص العمل لأبنائنا.

كما أنها تقتضي احترام النظام العام ، والالتزام بالقوانين ؛ إذ لا بد لكل فئة تتعايش في مجتمع واحد من بعض الأنظمة والقواعد العادلة التي تضبط سلوك الأفراد ، وتحفظ على الإنسان حقوقه، ويُلزَم فيها بأداء ما عليه من واجبات ، وبِدون النظام لن ينال النَّاسُ

---

(١) صحيح البخاري ، كِتَابُ فَرْضِ الخُمُسِ ، بَابُ قَوْلِ الله تَعَالَى:﴿فَأَنَّ للهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ٤١]، حديث رقم ٣١١٨.

حقوقهم ، ولن يتحقق لهم العَدلُ ؛ فالالتزام بالقوانين سلوك ديني وحضاري، ودعامة لابد منها للحفاظ على كيان الدول واستقرارها ونمائها.

إن الوطنية الحقيقية تقتضي المشاركة بإخلاص في بناء الوطن، ويكون ذلك من خلال إتقان العمل ، وجودة الإنتاج ؛ بما يؤدي إلى تقدم الوطن وازدهاره ، فإن ديننا الحنيف لا يطلب من الناس مجرد العمل ؛ إنما يطلب إتقانه وإحسانه ، حيث يقول نبينا(صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (إِنَّ اللهَ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتْقِنَهُ)(١)، ويقول ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ : سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ :"مِنْ كَرَمِ الرَّجُلِ حَنِينُهُ إِلَى أَوْطَانِهِ ، وَشَوْقُهُ إِلَى إِخْوَانِهِ"(٢).

فما أحوجنا إلى تضافر الجهود في بناء الوطن ؛ فالوطن لكل أبنائه، وهو بهم وبجهدهم وعرقهم جميعًا ، كل في مجاله وميدانه ،

---

(١) مسند أبي يعلى الموصلي ٧ / ٣٤٩ ، حديث رقم ٤٣٨٦.

(٢) آداب الصحبة لأبي عبد الرحمن السلمي ، ص١٠٣، تحقيق/ مجدي فتحي السيد، ط دار الصحابة للتراث ، مصر، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ – ١٩٩٠ م .

الجندي والشرطي في حفاظهما على أمن الوطن وأمانه ، والطبيب في مشفاه ، والفلاح في حقله ، والعامل في مصنعه ، وهكذا في سائر الصنائع والحرف والواجبات ، حيث يقول سبحانه: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى البِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالعُدْوَانِ﴾[1].

* * *

---

(١) المائدة: ٢.

مكارم الأخلاق وأثرها في بناء الحضارات

إن الدعوة إلى مكارم الأخلاق من القواسم المشتركة بين جميع الأديان السماوية ، فحيثما وُجدت الأخلاق وُجد صحيح الدين ، وها هو نبينا محمد (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قد ختم الله – عز وجل- به الرسالات السابقة ، ليجمع مكارم الأخلاق ويتممها ، حيث يقول سبحانه : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى الله فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾[1]، ويقول تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[2]، ويقول(صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ)[3].

والمتأمل في حياة نبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يجد أنها كانت تطبيقًا عمليًّا لأخلاق القرآن الكريم وقِيَمِه السامية ، التي تتسق والفطرة الإنسانية السوية ، فحينما سئلت السيدة عائشة – رضي الله

(١) الأنعام :٩٠.

(٢) القلم:٤.

(٣) مسند البزار، ١٥/ ٣٦٤، حديث رقم ٨٩٤٩.

عنها- عن أخلاقه (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، قالت : (كان خُلُقُه القُرآنَ)[1]، فكان (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قرآنًا يمشي على الأرض.

كما أن المتدبر في العبادات التي أمر بها الإسلام يجد أنها جاءت لترتقي بالأخلاق ، وتهذبها ، فما من فريضة فرضها الإسلام إلا ولها أثر أخلاقي يعود على من يقوم بها ، وعلى المجتمع كله ؛ يقول سبحانه: ﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾[2]، ويقول تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾[3]، ويقول (جل شأنه) : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[4]، ويقول (عز وجل): ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾[5].

---

(١) مسند أحمد ، ٤٢/ ١٨٣، حديث رقم ٢٥٣٠٢.

(٢) العنكبوت: ٤٥.

(٣) التوبة: ١٠٣.

(٤) البقرة: ١٨٣.

(٥) البقرة: ١٩٧.

إنَّ الأخلاق الفاضلة من أهم ركائز قيام الدول والحضارات، واستقرارُ الدول ودوامُها يعود إلى مدى تمسكها بالقيم النبيلة والأخلاق الحميدة ، وقد خلَّد التاريخ بحروف من نور النجاشي ملك الحبشة ، الذي اشتهر بالعدل ومكارم الأخلاق ، فحينما اشتد أذى المشركين لنبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وأصحابه ، أشار عليهم (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أن يهاجروا إلى الحبشة ؛ لعلمه أن ملكها صاحب أخلاق راقيةٍ ، ومبادئ قويمة ، حيث يقول (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (إِنَّ بِأَرْضِ الحَبَشَةِ مَلِكًا لا يُظْلَمُ أَحَدٌ عِنْدَهُ ، فَالْحُقُوا بِبِلَادِهِ ، حَتَّى يَجْعَلَ الله لَكُمْ فَرَجًا ، وَمَخْرَجًا)[١] .

إنَّ الأمم والحضارات لا يمكن أن تبنى بناءً سديدًا إلا إذا اعتمدت في أسس بنائها على مكارم الأخلاق ؛ فلا تتقدم أمة بدون الصدق والأمانة ، ولا يستقيم بنيانها بدون الانضباط السلوكي ،

---

(١) السنن الكبرى للبيهقي ، كتاب السير ، بَابُ الْإِذْنِ بِالْهِجْرَةِ ، حديث رقم ١٧٧٣٤.

ولا تقوى بدون الإعداد ، والشجاعة ، ولا تتآلف بدون التآخي، والتكاتف ، فالأمة الواحدة تشبه الجسد الواحد الذي يتعاون أعضاؤه على خدمته ، وسلامته ، ولا يكتمل الإيمان إلا باكتمال التحابِّ ، والتآلف ، والتعاون ، حيث يقول تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[١]، ويقول نبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ ، وَتَرَاحُمِهِمْ ، وَتَعَاطُفِهِمْ ، مَثَلُ الْجَسَدِ ؛ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى)[٢]، ويقول (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ)[٣].

إن التحلي بمكارم الأخلاق صمام أمان للمجتمعات من الانحلال والفوضى والضياع ، وبزوالها تسقط الأمم ، فكم من

---

(١) المائدة:٢.

(٢) سبق تخريجه ، ص ١٩.

(٣) صحيح البخاري ، كتاب الإيمان ، بَابٌ مِنَ الإِيمَانِ أَنْ يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ، حديث رقم ١٣.

حضارات انهارت بتردي أخلاقها ، وقد ذكر القرآن الكريم نماذج لأمم هلكت بسبب بعدها عن الأخلاق ؛ حيث يقول سبحانه: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾(١)، ويقول تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾(٢)، ويقول (جل شأنه):﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ * أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾(٣).

والمتأمل في جوهر الحضارة الإسلامية يجدها حضارة قيم وأخلاق ، حيث يقول نبينا (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ المِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا، وَبِبَيْتٍ فِي وَسَطِ الجَنَّةِ لِمَنْ

---

(١) الذاريات: ٤٦.

(٢) فصلت: ١٥.

(٣) العنكبوت: ٢٨ ، ٢٩.

تَرَكَ الكَذِبَ وَإِنْ كَانَ مَازِحًا ، وَبِبَيْتٍ فِي أَعْلَى الجَنَّةِ لِمَنْ حَسُنَ خُلُقُه)[1]، ويقول(صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا، أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا)[2]، ويقول (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ القِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلاقًا)[3].

إن من سبل استعادة قيمنا وأخلاقنا الجميلة أن يبدأ كل منا بنفسه ، وأن يكون قدوة في أخلاقه وسلوكه حيث حلَّ وحيث ارتحل ، وحيث كان ، وحيث أقام ، وأن نغرس هذه القيم في نفوس الشباب ، فهم عماد الأمة ، وقلبها النابض ، وأملها في مستقبل مشرق ، ولقد حكى القرآن الكريم ما كان من لقمان الحكيم مع ابنـه ، حيث غرس فيه الجوانب الأخلاقية ، وحثّه على الإصلاح والعطاء ، قال تعالى:﴿ يَابُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ* وَلَا تُصَعِّرْ

(١) سنن أبي داود ، كِتَاب الْأَدَبِ ، بَابٌ فِي حُسْنِ الْخُلُقِ ، حديث رقم ٤٨٠٠ .

(٢) مسند أحمد، ١٢/ ٣٦٤، حديث رقم ٧٤٠٢.

(٣) سنن الترمذي ، أَبْوَابُ البِرِّ وَالصِّلَةِ ، بَابُ مَا جَاءَ فِي مَعَالِي الأَخْلَاقِ ، حديث رقم ٢٠١٨.

خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾(١).

فما أحوجنا إلى أن نجعل هذه القيم والأخلاق منهج حياة، وسلوكًا عمليًّا نتعايش به في مجتمعنا ، ومع الناس جميعًا ، فمن أراد الدين الحق والإنسانية الحقة ، فليظهر أخلاقه للناس ، فيحترم الكبير ، ويعطف على الصغير ، ويُجِلّ العالم ، ويبتعد عن الكذب، والخيانة ، والغش ، وأكل أموال الناس بالباطل ، ويلتزم الصدق، والأمانة ، ويتعامل بالحسنى مع الناس ، وذلك مقصد الدين وهدفه، يقول تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ * وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾(٢).

---

(١) لقمان: ١٧ـ ١٩.

(٢) فصلت: ٣٣، ٣٤.

التفوق العلمي وأثره في تقدم الأمم

لقد رغَّب الإسلام في طلب العلم ، وحثَّ على الاجتهاد والتفوق العلمي ، ولا أدل على ذلك من أن أول قضية تناولها القرآن الكريم هي قضية العلم ، وأول أمرٍ سماوي نزل به الوحي هو الأمر بالقراءة ، حيث يقول تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الذِي عَلَّمَ بِالقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[1]، كما سُميت سورة كاملة في القرآن الكريم باسم سورة القلم ، وبدأها الحق سبحانه بقوله: ﴿ن وَالقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾[2]، تأكيدًا على أهمية أدوات العلم ووسائله ، واستهلَّ سبحانه سورة الرحمن بقوله: ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ القُرْآنَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ البَيَانَ﴾[3]، وفي هذا تنبيه للناس كافة على بيان فضل العلم ، والحث عليه ، وإشارة صريحة إلى أن الإسلام دين العلم والمعرفة ، وأن الأمة الإسلامية هي أمة العلم والحضارة.

---

(١) العلق: ١ - ٥.

(٢) القلم: ١.

(٣) الرحمن: ١-٤.

ولله درُّ شوقي حين يقول:

بالعِلمِ والمالِ يَبني النّاسُ مُلْكَهُمُ   لم يُبنَ مُـلْكٌ على جهـلٍ وإقلالِ

ويكفي العلم شرفًا أن الله (عز وجل) لم يأمر نبيه محمد (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بالازدياد من شيء في الدنيا إِلَّا من العلم؛ حيث يقول سبحانه: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾(1)؛ بل إن النبي (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) جعل الخروج لطلب العلم خروجًا في سبيل الله - عز وجل- ، وبيَّن أن الجد في طلبه والتفوق فيه سبب من أسباب دخول الجنة ، حيث يقول (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (مَنْ خَرَجَ فِي طَلَبِ العِلْمِ فَهُوَ فِي سَبِيلِ الله حَتَّى يَرْجِعْ)(2)، ويقول (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا ، سَهَّلَ الله لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الجُنَّةِ)(3).

---

(1) طه: ١١٤.

(2) سنن الترمذي، أَبْوَابُ الْعِلْمِ، بَابُ فَضْلِ طَلَبِ العِلْمِ ، حديث رقم ٢٦٤٧.

(3) صحيح مسلم ، كتاب الذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ وَالتَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ ، بَابُ فَضْلِ الِاجْتِمَاعِ عَلَى تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ وَعَلَى الذِّكْرِ ، حديث رقم ٢٦٩٩.

وقد بَيَّن نبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أن أهل العلم هم ورثة الأنبياء في إرشاد الناس ، وهدايتهم ، والأخذ بناصيتهم إلى طريق الحق والنور ، والتقدم والرقي ، فقال (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (إنَّ العلماءَ ورثةُ الأنبياء ، وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلا دِرْهَمًا وَإِنَّمَا وَرَّثُوا العِلْمَ ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بحَظٍّ وَافِرٍ)(١)، ويقول (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (وَإِنَّ فَضْلَ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كَفَضْلِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ عَلَى سَائِرِ الكَوَاكِبِ)(٢).

إنَّ التفوق العلمي الذي رغَّب فيه الإسلام ليس مقتصرًا على التفوق في ميدان العلم الشرعي فحسب ، وإنما يشمل كل علم ينفع الناس في شئون دينهم ، وشئون دنياهم ؛ ولذلك فقد جاء قول الله – عز وجل–: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى الله مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ﴾(٣)، في معرض الحديث عن العلوم الكونية ، حيث يقول سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله

(١) سنن أبي داود ، أول كتاب العلم ، باب الحثِّ على طلب العلم ، حديث رقم ٣٦٤١.

(٢) هو جزء من الحديث السابق.

(٣) فاطر: ٢٨.

أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾[1]، وفي ذلك دلالة على اهتمام الإسلام وعنايته بالعلوم الكونية كاهتمامه وعنايته بالعلوم الشرعية ، وأن التفوق العلمي في شتى المجالات من أهم عوامل بناء الحضارات واستمرارها .

ولله در القائل[2]:

بِقُوَّةِ العِلْمِ تَقْوَى شَوْكَةُ الأُمَمِ   فَالحُكْمُ فِي الدَّهْرِ مَنْسُوبٌ إلى القَلَمِ

فلا شك أنَّ العلم أهم سبل تقدم الأمم ، فبالعلم تبنى الأمم ، وتستصلح الأراضي ، وتَعْظُم السُّلالات ، وتُدَار التجارات ، وتُطَور الصناعات ، وتُعَالج الآفات ، وتستخرج المعادن ، والأمة العظيمة هي التي تبهر العالم بما تنتجه من علم ومعرفة ، وما تتقنه

---

(١) فاطر: ٢٧، ٢٨.

(٢) ديوان محمود سامي البارودي ، ص: ٧٥ .

من زراعة ، وصناعة ، وتجارة ، وثقافة ، وما تخرجه من الأطباء البارعين ، والمهندسين المتقنين ، والصناع الحرفيين الماهرين.

فما أحوجنا إلى أن نأخذ بأسباب التفوق العلمي في مختلف المجالات ؛ فإننا إذا تفوقنا في أمور دنيانا احترم الناس ديننا ودنيانا، وعلى كل منا أن يسعى لأعلى درجات التفوق في مجاله عالمـًا ، أو باحثًا ، أو صانعًا ، أو حرفيًّا ؛ حتى يسهم في تقدم وطنه ورقيّه ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إليهمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[1]، فإذا كان المطلوب هو أن تنفر طائفة من كل فرقة ليتفقهوا في علوم الدين ، فإن على الباقين أن ينفروا فيما ينفع البلاد والعباد ، فتنفر فرقة لطلب الطب ، وأخرى لطلب الهندسة ، وثالثة للعمل بالزراعة ، ورابعة للعمل في الصناعة ، وخامسة للاشتغال بالتجارة ، وهكذا في سائر الفنون والحرف والصناعات.

* * *

---

(١) التوبة: ١٢٢.

الصلابة في مواجهة الجوائح والأزمات

ينبغي لنا ونحن في استقبال العام الجديد أن نتحلى بمزيد من الأمل في الله (عز وجل)، والأمل في غد أفضل ، فالأمل حياة ، وهو شعاع النور الذي يبدد ظلام اليأس في القلوب ، ويبعث في النفس العزيمة ، والقوة ، والصلابة في مواجهة الجوائح والأزمات ، كما أن الأمل وحسن الظن بالله تعالى يشرحان صدر الإنسان للعمل، والعطاء ، والجد ، والمتأمل في القرآن الكريم يجده مفعمًا بالأمل، حيث يقول سبحانه: ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾(١)، ويقول تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾(٢).

ولقد اتسمت دعوة النبي (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بالأمل والتفاؤل ، فكان (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يبث روح الأمل في قلوب أصحابه بمستقبل مشرق ، وغدٍ باهر لا يعرف اليأس ، ولا الإحباط، وكان (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يحب الفأل، ويكره التشاؤم،

---

(١) الحجر : ٥٦.

(٢) الشرح : ٥ ، ٦.

يقول (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (بَشِّرُوا وَلَا تُنَفِّرُوا ، وَيَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا)(١)، ويقول (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (وَاعْلَمْ أَنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرًا كَثِيرًا ، وَأَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا)(٢).

لقد مر العالم بأحداث عظيمة ، وإن الأمة التي تجعل من الأحداث التي مرت بها دافعا قويًّا إلى الأمل والعمل ، وتستفيد من الأزمات والجوائح الدروسَ والعبرَ ، إنما تشق طريق العبور نحو مستقبل أفضل ، في عالم لا مكان فيه لمن لا يأخذون بأسباب الحياة بمنتهى الجد مع اعتمادهم على الله - عز وجل- ولجوئهم إليه ، وحسن توكلهم عليه ، فالإنسان مأمور بالأخذ بأسباب الحياة ما دام فيه نفس يتنفسه ، يقول نبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَفِي يَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ ، فَإِنِ اسْتَطَاعَ أَلَّا يَقُومَ حَتَّى يَغرِسَها

(١) صحيح مسلم ، كِتَابُ الْجِهَادِ وَالسِّيَرِ ، بَابٌ فِي الْأَمْرِ بِالتَّيْسِيرِ ، وَتَرْكِ التَّنْفِيرِ، حديث رقم ١٧٣٢.

(٢) مسند أحمد، ٥/ ١٨، حديث رقم ٢٨٠٣.

فليَغرِسْها)[1]، وقد قالوا: اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا ، فما أحوجنا إلى هذا التوازن بين عمارة الدنيا ، والأخذ بأسبابها ، والعمل على مرضاة الله – عز وجل– في هذه الأسباب.

إن من الأخذ بالأسباب في مواجهة الأزمات والجوائح: تنفيذ التوجيهات التي تصدر عن مؤسسات الدولة الرسمية ، والأخذ بالإجراءات الاحترازية التي دعت إليها ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾[2]، ومنها : الأخذ بكل أسباب العلم ليحمي الإنسان نفسه وغيره، ومن الأخذ بأسباب العلم: أن نلتزم بتوجيهات أهل الطب في مواجهة انتشار فيروس (كورونا) المستجد ، وذلك بالالتزام بجميع الإجراءات الاحترازية الوقائية ، وأهمها الحفاظ على مسافات التباعد الاجتماعي.

(١) الأدب المفرد للبخاري، بَابُ اصْطِنَاعِ الْمَالِ، حديث رقم ٤٧٩ .

(٢) النساء:٥٩.

وعلينا مع الأخذ بالأسباب أن نكثر من الدعاء والتضرع إلى الله تعالى ، وأن نذكره سبحانه في كل أحوالنا كما أمرنا ، وأن نكثر من الصدقات ، يقول سبحانه: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾[1]، ويقول تعالى:﴿ياأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا الله ذِكْرًا كَثِيرًا﴾[2]، ويقول نبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (مَا مِنْ عَبْدٍ يَقُولُ فِي صَبَاحِ كُلِّ يَوْمٍ وَمَسَاءِ كُلِّ لَيْلَةٍ : بِسْمِ الله الَّذي لا يَضُرُّ مَعَ اسْمِهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ ، ثَلاثَ مَرَّاتٍ ، فَيَضُرَّهُ شَيْءٌ)[3]، ويقول (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (حَصِّنُوا أَمْوَالَكُمْ بِالـزَّكَاةِ ، وَدَاوُوْا مَرْضَاكُمْ بِالصَّدَقَةِ ، وَأَعِدُّوا لِلْبَلاءِ الدُّعَاءَ)[4].

* * *

---

(١) الأنعام:٤٣.

(٢) الأحزاب :٤١.

(٣) سنن الترمذي ، أَبْوَابُ الدَّعَوَاتِ ، بَاب مَا جَاءَ فِي الدُّعَاءِ إِذَا أَصْبَحَ وَإِذَا أَمْسَى، حديث رقم ٣٣٨٨.

(٤) المعجم الكبير للطبراني، ١٠/ ١٢٨، حديث رقم ١٠١٩٦.

الحَلالُ بَيّنٌ والحَرامُ بَيّنٌ

إن من عظمة الشريعة الإسلامية أنها جاءت بالخير والنفع والفضل والسّعة ، وأرشدت الناس إلى ما يسعدهم في الدنيا والآخرة ؛ فأحلت لهم كل طيب ، وحرمت عليهم كل خبيث ، ونهت عن كل ضرر ، وشرعت كل ما يقيم الحياة ، ويحفظ على الناس أمنهم واستقرارهم ؛ حيث يقول تعالى:﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾[1]، ويقول سبحانه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[2]، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (لا ضَرَرَ وَلا ضِرَار)[3].

والمتدبر في أحكام الشريعة الإسلامية يجد أن مساحة الحلال فيها

---

(١) الأعراف :١٥٧.

(٢) النحل : ٩٧.

(٣) سنن ابن ماجه ، كِتَابُ الْأَحْكَامِ ، بَابُ مَنْ بَنَى فِي حَقِّهِ مَا يَضُرُّ بِجَارِهِ ، حديث رقم ٢٣٤١.

واسعة ، ومساحة الحرام ضيقة محدودة ، وأن كليهما واضح بَيِّنٌ، حيث يقول سبحانه: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[(١)]، ويقول نبينا (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (إن الْحَلالَ بَيِّنٌ وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ ، وَبَيْنَهُما أمور مُشْتَبِهَاتٌ لا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ الناسِ، فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ ، كالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِك أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ ، أَلا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى ، أَلا وَإِنَّ حِمَى الله مَحَارِمُه ، أَلا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، وإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلا وَهِيَ الْقَلْب)[(٢)].

---

(١) الأنعام : ١٥١.

(٢) صحيح مسلم ، كتاب المساقاة ، بَابُ أَخْذِ الْحَلَالِ وَتَرْكِ الشُّبُهَاتِ ، حديث رقم ١٥٩٩.

ويقول نبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) (إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لاَ يَقْبَلُ إِلاَّ طَيِّبًا ، وَإِنَّ اللهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِيْنَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِيْنَ، فَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾(١)، وَقَالَ:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾(٢)، ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيْلُ السَّفَرَ، أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ، يَقُولُ: يَا رَبِّ يَا رَبِّ ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟!)(٣)، وحذر ديننا الحنيف من مغبة أكل الحرام ، يقول نبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (لَا يَرْبُو لَحْمٌ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ إِلَّا كَانَتِ النَّارُ أَوْلَى بِهِ)(٤)، وفي رواية : (وَكُلُّ لَحمٍ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ فَالنَّارُ أَوْلَى بِهِ)(٥).

(١) المؤمنون: ٥١ .

(٢) البقرة: ١٧٢ .

(٣) صحيح مسلم، كتاب الزكاة، بَابُ قَبُولِ الصَّدَقَةِ مِنَ الْكَسْبِ الطَّيِّبِ وَتَرْبِيَتِهَا، حديث رقم ١٠١٥.

(٤) سنن الترمذي، أبواب السفر ، بَابُ مَا ذُكِرَ فِي فَضْلِ الصَّلَاةِ، حديث رقم ٦١٤.

(٥) المعجم الكبير للطبراني ١٩/ ١٣٥ ، حديث رقم ٢٩٨ .

لعل أهم فارق بين العلماء والجهلاء هو مدى فهم هؤلاء وأولئك لقضايا الحِل والحرمة ، والضيق والسعة ؛ فالعالم يدرك أن الأصل في الأشياء الحل والإباحة ، وأن التحريم والمنع هو استثناء من الأصل ، حيث يقول سبحانه: ﴿قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ الله بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1]، ويقول نبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (إِنَّ الله حَدَّ حُدُودًا فَلَا تَعْتَدُوهَا وَفَرَضَ لَكُمْ فَرَائِضَ فَلَا تُضَيِّعُوهَا وَحَرَّمَ أَشْيَاءَ فَلَا تَنْتَهِكُوهَا وَتَرَكَ أَشْيَاءَ مِنْ غَيْرِ نِسْيَانٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَكِنْ رَحْمَةٌ مِنْهُ لَكُمْ فَاقْبَلُوهَا وَلَا تَبْحَثُوا فِيهَا)[2]، ويقول (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (مَا أَحَلَّ الله فِي كِتَابِهِ فَهُوَ حَلَالٌ ، وَمَا حَرَّمَ فَهُوَ حَرَامٌ ، وَمَا سَكَتَ عَنْهُ فَهُوَ عَافِيَةٌ ، فَاقْبَلُوا مِنَ الله عَافِيَتَهُ ، فَإِنَّ

---

(١) الأنعام : ١٤٥.

(٢) المستدرك للحاكم ، كِتَابُ الْأَطْعِمَةِ ، حديث رقم ٧١١٤.

اللهَ لَمْ يَكُنْ نَسِيًّا)[1]، ويقول الإمام النووي: "وأما من صحَّ قصدُه، فاحتَسَبَ في طَلَب حيلةٍ لا شُبهةَ فيها، لتخليصٍ من ورطة يمينٍ ونحوها، فذلك حسنٌ جميلٌ، وعليه يُحمَلُ ما جاء عن بعض السَّلَفِ من نحو هذا، كقَولِ سُفيان الثوري: "إنَّما العلمُ عندنا الرُّخصةُ من ثِقَةٍ، فأمَّا التشديدُ فيُحسِنُه كُلُّ أحدٍ""[2].

فالجهلاء يجعلون الأصل في كل شيء المنع والتحريم، ويطلقون مصطلحات التحريم والتفسيق والتبديع والتكفير دون وعي، غير مدركين ما يترتب على ذلك من آثار، وغير مفرقين بين التحريم والكراهية، ولا حتى ما هو خلاف الأَوْلى، فصعَّبوا على الناس حياتهم، ونفَّروهم من دين الله – عز وجل–، وهو ما حذرنا منه ربنا (عز وجل)، ونبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، حيث يقول

---

(١) السنن الكبرى للبيهقي، أَبْوَابِ مَا لَا يَحِلُّ أَكْلُهُ وَمَا يَجُوزُ لِلْمُضْطَرِّ مِنَ الْمَيْتَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، بَابُ مَا لَمْ يُذْكَرْ تَحْرِيمُهُ، وَلَا كَانَ فِي مَعْنَى مَا ذُكِرَ تَحْرِيمُهُ مِمَّا يُؤْكَلُ أَوْ يُشْرَبُ، حديث رقم ١٩٧٢٤.

(٢) آداب الفتوى للنووي، ص: ٣٧.

سبحانه: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾[1]، ويقول نبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّروا ، وَبَشِّرُوا وَلَا تُنَفِّرُوا)[2].

* * *

(١) النحل : ١١٦.

(٢) صحيح البخاري ، كِتَابُ العِلْمِ ، بَابُ مَا كَانَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَتَخَوَّلُهُمْ بِالْمَوْعِظَةِ وَالعِلْمِ كَيْ لاَ يَنْفِرُوا ، حديث رقم ٦٩.

حقـوق الجار

لقد حرص الإسلام على دعم أواصر المحبة بين أفراد المجتمع مما يمنحه قوة وتماسكًا ، ومما يشيع روح التعاون بين الناس ويزيد المجتمع ثباتًا واستقرارًا مراعاةُ حقوقِ الجار التي أعلى الإسلام شأنها واهتم بها أيّما اهتمام ؛ بل جعلها من علامات الإيمان ، فقد جعل النبي(صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) الإيمانَ مشروطًا بالإحسان إلى الجار ؛ حيث يقول: (مَنْ كَانَ يُؤْمِن بِالله وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُحْسِنْ إِلَى جَارِهِ)[1]، كما جعل حُسنَ معاملة الجار وإكرامَه من الإيمان أيضًا، قال (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (مَنْ كَانَ يُؤْمِن بِالله وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ)[2]، ولقد أوصى الله - عز وجل- في كتابه الكريم بالجار وأمر بالإحسان إليه ، فقال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، بَابُ الْحُثِّ عَلَى إِكْرَامِ الْجَارِ وَالضَّيْفِ ، وَلُزُومِ الصَّمْتِ إِلَّا عَنِ الْخَيْرِ وَكَوْنِ ذَلِكَ كُلِّهِ مِنَ الْإِيمَانِ ، حديث رقم ٤٧.

(٢) صحيح البخاري ، كِتَابُ الأَدَبِ ، بَابُ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِالله وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلاَ يُؤْذِ جَارَهُ ، حديث رقم ٦٠١٩.

بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾(1)، ولهذا كان كثيرًا ما ينزل الوحي على النبي (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يوصي بالجار حتى ظنَّ النبي (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أن الله – عز وجل– سيشرع ميراثًا بين الجيران من شدة الوصية بهم ، قال (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِى بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ)(2).

إن الجار في نَظَر الإسلام مُعينٌ ، وناصِرٌ ، وحارِسٌ ، وأمينٌ ، يُطْعِمُكَ إذا جُعْت ، ويُشاركك في الأفراح والمناسبات الطيبة ، ويُواسي ويُعزِّي في المصائب والأتراح ، ويُرْشِد ، وينصَح ، ويتعاوَن معك على البرّ والتقوى ، ويعودُك إذا مرِضْت ، ويزورُك زيارة الأخوّة الخالصَة ، ويحْفظُك في أهلك وولدك ، ولا يخونك في مالٍ ولا أهلٍ.

(1) النساء: 36.

(2) صحيح البخاري، كتاب الأدب، بَابُ الوَصَاةِ بِالْجَارِ، حديث رقم 6015.

قال الإمام الغزالي (رحمه الله): " وجملة حق الجار: أن يبدأه بالسلام ، ولا يطيل معه الكلام ، ولا يكثر عن حاله السؤال ، ويعوده في المرض ، ويعزيه في المصيبة ، ويقوم معه في العزاء ، ويهنئه في الفرح ، ويظهر الشركة في السرور معه ، ويصفح عن زلاته ، ولا يتطلع من السطح إلى عوراته ، ولا يضايقه في وضع الجِذْع على جداره ، ولا في مصب الماء في ميزابه ، ولا في مطرح التراب في فنائه، ولا يضيق طرقه إلى الدار ، ولا يتبعه النظر فيما يحمله إلى داره ، ويستر ما ينكشف له من عوراته ، وينعشه من صرعته إذا نابته نائبة، ولا يغفل عن ملاحظة داره عند غيبته ، ولا يسمع عليه كلامًا ، ويغض بصره عن حرمته ، ولا يديم النظر إلى خادمته ، ويتلطف بولده في كلمته ، ويرشده إلى ما يجهله من أمر دينه ودنياه[1].

ومن حقوق الجار تفقد حاله لا سيما الفقير وذو الحاجة ، وهذا من الإيمان والمروءة ، قَالَ (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (لَيْسَ الْمُؤْمِنُ

(١) إحياء علوم الدين، ٢/ ٢١٣.

الَّذِي يَشْبَعُ وجَارُهُ جَائِعٌ إِلَى جَنْبِهِ)(١)، فالإحسان إلى الجار يشمل كل وجوه الخير ، فعَنْ رَسُول الله (صَلَّى الله عَلَيْه وَسَلَّمَ) أَنَّهُ قَالَ: (خَيْرُ الأَصْحَابِ عِنْدَ الله خَيْرُهُم لِصَاحِبِهِ ، وَخَيْرُ الجِيرَانِ عِنْدَ الله خَيْرُهُمْ لِجَارِهِ)(٢)، فالإحسان إلى الجار دليل على صدق الإيمان بالله تعالى، وعلى التخلق بمكارم الأخلاق وعلى كمال العقل ورجاحته.

ومن إكرامِ الجارِ والإحسان إليه: المُبادرةُ بتقديم هديةٍ إليه قليلة كانت أو كثيرة ، إذ إن الهدية في ذاتها رسول يحمل الصلة والألفة، قال رسول الله (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (يَا أَبَا ذَرٍّ إِذَا طَبَخْتَ مَرَقَةً فَأَكْثِرْ مَاءَهَا ، وَتَعَاهَدْ جِيرَانَكَ)(٣)، وعَنْ عَائِشَةَ -رَضِيَ الله عَنْهَا- قالت: قُلْتُ يَا رَسُولَ الله إِنَّ لِي جَارَيْنِ فَإِلَى أَيِّهِمَا أُهْدِي؟ قَالَ : (إِلَى أَقْرَبِهِمَا مِنْكِ بَابًا)(٤)، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ الله عَنْهُ - عَنِ النَّبِيِّ

(١) الأدب المفرد للبخاري ، بَابُ لَا يَشْبَعُ دُونَ جَارِهِ ، حديث رقم ١١٢.

(٢) سنن الترمذي، أبواب البر والصلة، بَابُ مَا جَاءَ فِي حَقِّ الجِوَارِ ، حديث رقم ١٩٤٤.

(٣) صحيح مسلم ، كتاب الْبِرِّ وَالصِّلَةِ وَالْآدَابِ ، بَابُ الْوَصِيَّةِ بِالْجَارِ وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ ، حديث رقم ٢٦٢٥.

(٤) صحيح البخاري، كتاب الشفعة، بَاب أَيُّ الجِوَارِ أَقْرَبُ؟، حديث رقم ٢٢٥٩.

(صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ: (يَا نِسَاءَ الْمُسْلِمَاتِ لاَ تَحْقِرَنَّ جَارَةٌ لِجَارَتِهَا وَلَوْ فِرْسِنَ شَاةٍ)[1]. وقوله (فرسن شاة) : هو ما فوق الحافر، وهو كالقدم للإنسان ، والمقصود: الحض على التصدق ولو بالقليل، يقول النووي-رحمه الله-:" وهذا النهي عن الاحتقار نهي للمُعطية المُهدية ، ومعناه : لا تمتنع جارة من الصدقة والهدية لجارتها لاستقلالها – أي لظنها أنها قليلة- واحتقارها الموجودَ عندها ، بل تجود بما تيسر وإن كان قليلا كفرسن شاة ، وهو خير من العدم، وقد قال الله تعالى:﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾"[2].

ومن حقوق الجار كف الأذى عنه ، فهذا الحق من أعظم حقوق الجيران ، وإلحاق الأذى بالآخرين وإن كان حرامًا بصفة عامة فإن حرمته تشتد إذا كان متوجهًا إلى الجار ، وقد حذر النبي (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) من أذية الجار أشد التحذير فأقسم على انتفاء كمال الإيمان عمن لا يأمنُ جـارهُ شـرَّه ، فعَنْ أَبِي شُرَيْحٍ – رضي الله

(١) صحيح البخاري، كتاب الأدب ، بَاب لاَ تَحْقِرَنَّ جَارَةٌ لِجَارَتِهَا ، حديث رقم ٦٠١٧.

(٢) شرح مسلم للنووي، ٧/ ١٢٠، والآية : ٧ من سورة الزلزلة.

عنه- أَنَّ النَّبِيَّ (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ: (وَالله لاَ يُؤْمِنُ ، وَالله لاَ يُؤْمِنُ ، وَالله لاَ يُؤْمِنُ ، قِيلَ: وَمَنْ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ الَّذِي لاَ يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ ، قِيلَ: وَمَا بَوَائِقُهُ ؟ قَالَ: شَرُّهُ)[1]، فهذا الجار الذي لا يُراعي للجوار حقًّا ولا حرمة ، يعيش جارُه في خوفٍ وقلقٍ بسببه، ولا يَأمن على نفسه وماله وعرضه منه ، إنه جار لم يعرف الإيمانُ إلى قلبه سبيلًا ، وقد جعل النبي (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أذي الجار سببًا في عدم دخول الجنة أيضًا ، قال (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ)[2].

ومن حقوق الجار أيضًا تحمل الأذى منه ، فكما قال الحسن- رحمه الله-: "لَيْسَ حُسْنُ الْجِوَارِ كَفَّ الْأَذَى ، وَلَكِنَّ حُسْنَ الْجِوَارِ احْتِمَالُ الْأَذَى"[3]، فتَحَمُّلُ أذى الجار من شيم الكرام ذوي الأخلاق الكريمة والهمم العالية ، إذ يستطيع كثيرٌ من الناس أن يكفّ أذاه

---

(١) مسند أحمد، ١٤/ ١٥٣، حديث رقم ٨٤٣٢.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، بَابُ بَيَانِ تَحْرِيمِ إِيذَاءِ الْجَارِ، حديث رقم ٤٦ .

(٣) إحياء علوم الدين، ١ / ٢٦٣ .

عن الآخرين ، لكن أن يتحمل أذاهم صابرًا محتسبًا فهذه درجة عالية ، قال تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾[١]، وقال سبحانه : ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[٢].

ولنا في رسول الله (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) القدوة والمثل ، فقد آذاه أهله وجيرانه إبّان البعثة النبوية المباركة ، فما زاده ذلك إلا حلمًا وعفوًا ، وما حدث منه (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بعد فتح مكة لهو من أصدق الأمثلة الواقعية على تأكيد الإسلام على الإحسان والصفح .

على أننا نؤكد أن الإحسان إلى الجار عبادة بينك وبين الله تعالى ، فلا تتعلل بسوء معاملته ، فإن أجرك على الله تعالى ، فقد رُوي أن رجلًا جاء إلى ابن مسعود (رضي الله عنه) فقال له: "إن لي جارًا يؤذيني ويشتمني ويُضَيِّقُ عَلَيَّ ؟ فقال: (اذهب فَإِن هُو عَصَى اللهَ فِيكَ فَأَطِع اللهَ فِيه"[٣].

---

(١) الشورى: ٤٣.

(٢) فصلت: ٣٤.

(٣) إحياء علوم الدين، ٢/ ٢١٢.

ذلك لأن الإحسان يغلب الإساءة ، والصلة تَجُبُّ القطيعة ، فالتعامل مع الجار يكون بالفضل ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَة (رضي الله عنه) أَنَّ رَسُولَ الله (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ: (لَا يَمْنَعْ أَحَدُكُمْ جَارَهُ أَنْ يَغْرِزَ خَشَبَةً فِي جِدَارِهِ)(١).

وقد تحدث العلماء عن حدود الجوار الذي أمر الإسلام بمراعاته وجعل له حرمة ، يقول القاضي عياض -رحمه الله-: "واختُلف فى حد الجار ، فجاء عن علي (رضي الله عنه): من سمع النداء فهو جار، وقيل : من صلى معك صلاة الصبح في المسجد فهو جار ، وعن عائشة -رضي الله عنها-: (حَدُّ الجِوَار أَربَعُون دارًا مِن كُل جَانبٍ)(٢).

لكن كلما قَرُبَ الجار عَظُمَ حقه ، يقول الحافظ ابن حجر – رحمه الله- : "واسم الجار يشمل المسلمَ والكافر ، والعابد والفاسق والصديق والعدو ، والغريب والبلدي ، والنافع والضار ، والقريب

(١) صحيح مسلم، كتاب المساقاة ، بَابُ غَرْزِ الْخُشَبِ فِي جِدَارِ الْجَارِ ، حديث رقم ١٦٠٩.

(٢) إِكمَالُ المُعْلِمِ بفَوَائِدِ مُسْلِم ، ١/ ٢٨٤.

والأجنبي ، والأقرب دارًا والأبعد ، وله مراتب بعضها أعلى من بعض ، فأعلاها من اجتمعت فيه الصفات الأُول كلها ثم أكثرها ، وهلم جرًّا "(١).

والجيران ثلاثة : جار له ثلاثة حقوق ، وهو المسلم القريب ، له حق الجوار وحق القرابة وحق الإسلام ، وجار له حقان ، وهو المسلم غير القريب ، له حق الجوار وحق الإسلام ، وجار له حق واحد ، وهو الجار غير المسلم له حق الجوار، فيشمله ما أمر الله تعالى به من البر والإحسان إليه ، سبحان الله! حتى من هو على غير ملة الإسلام يأمرنا ربنا سبحانه وتعالى أن نحسن جواره ، فهل بعد هذا دليل على أهمية الجوار في الإسلام؟! .

هذا وليعلم كل واحد منا أن الجوار دائرته أوسع وأشمل ، والتي على أساسها ينشأ التعارف والتآلف الذي قال عنه ربنا تبارك وتعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ

(١) فتح الباري، ١٠/ ٤٤١.

خَبِيرٌ﴾[1]، ويصبح المجتمع جسدًا واحدًا متعاونًا في الخير متضامنًا في الشدة ، بل ربما يتسع مفهوم الجوار في الإسلام ليشمل القرى والمدن والدول وكل هؤلاء لهم حقوق وعليهم واجبات.

* * *

(١) الحجرات: ١٣.

جبر الخاطر وأثره على الفرد والمجتمع

جاء الإسلام برسالة جامعة للقيم الفاضلة والمُثُل العليا ، ومن تلك القيم الفاضلة قيمة جبر الخاطر ، فهي قيمة تنبئ عن شرف النفس، ورقة القلب ، وقد أعلى الله - عز وجل- من شأن هذه القيمة النبيلة ، حيث وصف نفسه بالجبر وجعلها صفة من صفاته، تتعلق باسمه تعالى (الجبَّار)، حيث يقول سبحانه: ﴿هُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَه إِلَّا هُوَ المَلِكُ القُدُّوسُ السَّلَامُ المُؤْمِنُ المُهَيْمِنُ العَزِيزُ الجَبَّارُ﴾[1]، يجبر الفقير بالغنى والمريض بالصِّحة ، قال القرطبي – رحمه الله–: " هُوَ مِنَ الْجَبْرِ وَهُوَ الْإِصْلَاحُ ، يُقَالُ: جَبَرْتُ الْعَظْمَ فَجَبَرَ ، إِذَا أَصْلَحْتُهُ بَعْدَ الْكَسْرِ، فَهُوَ فَعَّالٌ مِنْ جَبَرَ إِذَا أَصْلَحَ الْكَسِيرَ وَأَغْنَى الْفَقِيرَ"[2]، وكان من دعاء نبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (اللهمَّ اغْفِرْ لِي ، وَارْحَمْنِي ، وَاجْبُرْنِي ، وَاهْدِنِي ، وَارْزُقْنِي)[3].

---

(١) الحشر: ٢٣.

(٢) تفسير القرطبي، سورة الحشر، ١٥/ ٢١١.

(٣) سنن الترمذي، أَبْوَابُ الصَّلَاةِ ، بَابُ مَا يَقُولُ بَيْنَ السَّجْدَتَيْنِ، حديث رقم ٢٨٤.

كما تجلى الله – عز وجل– على عباده فجبر خواطرهم ، وطيَّب نفوسهم ، فهذه أم سيدنا موسى – عليه السلام – حين تفطَّر قلبها على ولدها خوفًا عليه ردَّه الله (عز وجل) إليها؛ جبرًا لخاطرها، حيث يقول سبحانه: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾(١)، وهذا يعقوب – عليه السلام– يأتيه الفرج من الله – عز وجل– بعد الشدة والبلاء ، فيرد الله إليه بصره وولديه ، حيث يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾(٢)، ولما أُخرج نبينا (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) من وطنه مكة جبر الله تعالى خاطره ، وأوحى إليه في طريقه إلى المدينة قوله (عز وجل): ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾(٣)، أي: إلى مكة مرة أخرى.

---

(١) القصص: ١٣.

(٢) يوسف: ٩٦.

(٣) القصص: ٨٥.

ويتجلَّى خُلُق جبر الخاطر في حياة نبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) حينما عاد إلى زوجه السيدة خديجة -رضي الله عنها-، وقد ظن أن شرًّا أحاط به ، فقالت له تطييبًا لنفسه وجبرًا لخاطره (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (كَلَّا وَالله مَا يُخْزِيكَ الله أَبَدًا ؛ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ ، وَتَكْسِبُ المَعْدُومَ ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ)[1]، وحين لقي نبيُّنا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) جابرَ بن عبد الله - رضي الله عنهما- منكسرًا بعد استشهاد أبيه عبد الله -رضي الله عنه- وتركه عيالًا ودَيْنًا ، جبر (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) خاطر جابر -رضي الله عنه-، وقال له: (.. أَفَلَا أُبَشِّرُكَ بِمَا لَقِيَ الله بِهِ أَبَاكَ)؟ قَالَ: بَلَى يَا رَسُولَ الله ، قَالَ: (مَا كَلَّمَ الله أَحَدًا قَطُّ إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ، وَأَحْيَا أَبَاكَ فَكَلَّمَهُ كِفَاحًا ، فَقَالَ: يَا عَبْدِي تَمَنَّ عَلَيَّ أُعْطِكَ ، قَالَ: يَا رَبِّ تُحْيِينِي فَأُقْتَلَ فِيكَ ثَانِيَةً ، قَالَ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ:

(١) متفق عليه: صحيح البخاري ، كَيْفَ كَانَ بَدْءُ الوَحْيِ إِلَى رَسُولِ الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)؟ حديث رقم٣ ، وصحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، بَابُ بَدْءِ الْوَحْيِ إِلَى رَسُولِ الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، حديث رقم ٢٥٢.

إِنَّهُ قَدْ سَبَقَ مِنِّي أَنَّهُمْ إِلَيْهَا لَا يُرْجَعُونَ)[1].

ويضرب لنا نبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أعظم الأمثلة في جبر الخواطر ، حينما جاءه فقراء المهاجرين وقالوا له: يا رسول الله، ذهب أهل الدُّثور بالأجور ، يصلون كما نصلي ، ويصومون كما نصوم ، ويتصدقون بفُضول أموالهم ، فقال لهم (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (أَوَ لَيْسَ قَدْ جَعَلَ الله لَكُمْ مَا تَصَّدَّقُونَ؟ إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً ، وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةً ، وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةً ، وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةً ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ ، وَنَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ صَدَقَةٌ...)[2].

والمتأمل في الشريعة الإسلامية يجد أنها جاءت بجبر خواطر الناس جميعًا ، لا سيما الضعفاء منهم ، حيث يقول تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾[3]، أي: طيِّب خاطرهما

---

(١) سنن الترمذي ، أبواب تفسير القرآن، بَابٌ: وَمِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ، حديث رقم٣٠١٠.

(٢) صحيح مسلم، كِتَاب الزَّكَاةِ، بَابُ بَيَانِ أَنَّ اسْمَ الصَّدَقَةِ يَقَعُ عَلَى كُلِّ نَوْعٍ مِنَ الْمَعْرُوفِ، حديث رقم ١٠٠٦.

(٣) الضحى: ٩ ، ١٠.

وأحسن إليهما ، ويقول نبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (هلْ تُنْصَرُونَ وتُرْزَقُونَ إلَّا بضُعَفَائِكُمْ؟!)[1]، ويقول (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (أَنَا وَكَافِلُ اليَتِيم فِي الجَنَّةِ هَكَذَا)، وَقَالَ بِإِصْبَعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالوُسْطَى[2]، ويقول (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (السَّاعِي عَلَى الأَرْمَلَةِ وَالمِسْكِينِ كَالمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ الله ، أَوِ القَائِمِ اللَّيْلَ الصَّائِمِ النَّهَارَ)[3]، وحين سُئِلَ (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): أَيُّ الأَعْمَال أَفْضَلُ؟ قَال: (أَنْ تُدْخِلَ عَلَى أَخِيكَ المُسْلِمِ سُرُورًا ، أَوْ تَقْضِيَ عَنْهُ دَيْنًا ، أَوْ تُطْعِمَهُ خُبْزًا)[4]، وقال (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى الله تَعَالَى أَنْفَعُهُمْ

---

(١) صحيح البخاري، كِتَابُ الجِهَادِ وَالسِّيَرِ، بَابُ مَنِ اسْتَعَانَ بِالضُّعَفَاءِ وَالصَّالِحِينَ فِي الحَرْبِ ، حديث رقم ٢٨٩٦.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الأدب ، بَابُ فَضْلِ مَنْ يَعُولُ يَتِيمًا ، حديث رقم ٦٠٠٥.

(٣) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب النفقات، بَابُ فَضْلِ النَّفَقَةِ عَلَى الأَهْلِ، حديث رقم ٥٣٥٣، واللفظ له، وصحيح مسلم ، كِتَابُ الزُّهْدِ وَالرَّقَائِقِ، بَابُ الْإِحْسَانِ إِلَى الْأَرْمَلَةِ وَالْمِسْكِينِ،حديث رقم٢٩٨٢.

(٤) شعب الإيمان للبيهقي، الثالثة والخمسون من شعب الإيمان، التعاون على البر والتقوى، حديث رقم ٧٢٧٣.

لِلنَّاسِ ، وَأَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللهِ تَعَالَى سُرُورٌ تُدْخِلُهُ عَلَى مُسْلِمٍ ، أَوْ تَكَشِفُ عَنْهُ كُرْبَةً ، أَوْ تَقْضِي عَنْهُ دَيْنًا ، أَوْ تَطْرُدُ عَنْهُ جُوعًا ، وَلَأَنْ أَمْشِيَ مَعَ أَخٍي فِي حَاجَةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ - يَعْنِي مَسْجِدَ الْمَدِينَةِ شَهْرًا - وَمَنَ كَفَّ غَضَبَهُ سَتَرَ اللهُ عَوْرَتَهُ ، وَمَنْ كَظَمَ غَيْظَهُ ، وَلَوْ شَاءَ أَنْ يُمْضِيَهُ أَمْضَاهُ مَلأَ اللهُ قَلْبَهُ رَجَاءً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ مَشَى مَعَ أَخِيهِ فِي حَاجَةٍ حَتَّى يَتَهَيَّأَ لَهُ أَثْبَتَ اللهُ قَدَمَهُ يَوْمَ تَزُولُ الْأَقْدَامِ)[1].

ومما لا شك فيه أنَّ جبر الخاطر قيمة أخلاقية تمتد لتشمل التكافل بين المجتمع كله ، فالإسلام لا يَعْرِف الأنانية أو السلبية، وإنما يعرف الإخاء الصادق ، ومراعاة مشاعر الناس ، وجبر خواطرهم ، حيث يقول نبينا (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ ، وَتَرَاحُمِهِمْ ، وَتَعَاطُفِهِمْ ، مَثَلُ الْجَسَدِ ؛ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى)[2]، ويقول (صَلَّى الله

(١) المعجم الكبير للطبراني، ١٢/ ٤٥٣، حديث رقم ١٣٦٤٦.

(٢) سبق تخريجه ، ص ١٩.

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلُ ظَهْرٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لاَ ظَهْرَ لَهُ ، وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ مِنْ زَادٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لاَ زَادَ لَهُ)(١).

إنَّ جبر الخاطر كما يكون بالفعل فقد يكون بكلمة حسنة ، أو بدعاء صادق، أو بنصيحة خالصة ، أو بابتسامة طيبة ، حيث يقول نبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) (لا تَحْقِرَنَّ مِنَ المَعْرُوف شَيْئًا وَلَو أنْ تَلقَى أخَاكَ بوجهٍ طَلْقٍ)(٢)، أي: مبتسم مستبشر، فجبر الخاطر له تأثير عظيم في تأليف القلوب ، ووحدة الصف ، وترابط المجتمع.

* * *

(١) صحيح مسلم، كِتَابُ اللُّقَطَةِ، بَابُ اسْتِحْبَابِ الْمُؤَاسَاةِ بِفُضُولِ الْمَالِ ، حديث رقم ١٧٢٨.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الْبِرِّ وَالصِّلَةِ وَالْآدَابِ، بَابُ اسْتِحْبَابِ طَلَاقَةِ الْوَجْهِ عِنْدَ اللِّقَاءِ، حديث رقم ٢٦٢٦.

قيمة الاحترام

إنَّ التمسك بالأخلاق الفاضلة والقيم النبيلة من أهم ركائز قيام الدول والحضارات، ولا يمكن أن تُبنَى الحضارات بناءً سديدًا، وتستقر، وتتفوَّق على غيرها إلَّا إذا قامت على الأخلاق والقيم؛ حيث يقول تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾(1)، وإنَّما تتماسك المجتمعات، وتتآلف، ويّقْوَى رِبَاطُها من خلال احترامها لقيمها وامتثالها لها، ولله در القائل(2):

وَإِنَّمَا الأُمَمُ الأَخْلَاقُ مَا بَقِيَتْ   فَإِنْ هُمُ ذَهَبَتْ أَخْلَاقُـهُمْ ذَهَبُـوا

ولا شك أنَّ قيمة الاحترام من أهم هذه القيم الإنسانية النبيلة التي دعا إليها الإسلام ، والتي يتمنى كل إنسان أن ينتسب إليها أو يوصف بها ، ولقد دعا ديننا الحنيف إلى التحلي بهذه القيمة في جميع صورها ، ومنها : احترام الذات بأن يرعى الإنسانُ مروءَته ،

---

(1) آل عمران: ١١٠.

(2) البيت: لأمير الشعراء أحمد شوقي، شعر شوقي في ميزان النقد، ص: ٨٥ .

ويصون نفسه عن فعل ما يعاب به أو يُذَمّ ، فيجتنب مواطن الريبة والتهمة ، حيث يقول نبينا (صَلَّى الله عَلَيْه وَسَلَّمَ): (فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ)(١)، ويقول (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (لَا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ)(٢).

ويقول القاضي الجرجاني(٣):

وما زلتُ منحازًا بعرضيَ جانبًا ... من الذلِّ أعتدُّ الصيانةَ مَغنَما
يقولون هذا مَشْربٌ قلتُ قد أرى ... ولكنَّ نفسَ الحُرِّ تَحتَملُ الظَّمَا
وما كلُّ برقٍ لاحَ لي يستفزُّني ... ولا كلُّ من في الأرضِ أرضاه مُنَعَّما

(١) صحيح مسلم، كِتَابُ الْمُسَاقَاةِ ، بَابُ أَخْذِ الْحَلَالِ وَتَرْكِ الشُّبُهَاتِ ، حديث رقم ١٥٩٩.

(٢) سنن الترمذي، أبواب الفتن، بَابُ مَا جَاءَ فِي النَّهْيِ عَنْ سَبِّ الرِّيَاحِ، باب منه ، حديث رقم ٢٢٥٤ .

(٣) هو: علي بن عبد العزيز بن الحسن بن علي القاضي الجرجاني ، ولد سنة ٣٢٢هـ وتوفي سنة ٣٩٢هـ ، له من الكتب: الوساطة بين المتنبي وخصومه. انظر: روضة الإعلام بمنزلة العربية من علوم الإسلام لابن الأزرق الغرناطي ، ت هـ ٨٩٦ ، ٢/ ٩٥٥ .

ويقول آخر[1]:

وَأَسْتَفُّ تُرْبَ الأَرْضِ كَيْلا يُرَى لَهُ   عَلَـيَّ مِنَ الطَّوْلِ امْرُؤٌ مُتَطَوِّلُ

ويقول عنترة العبسي[2]:

فـأرى مغانمَ لـو أشاء حويتها   يصدُّني عنها الحياء وتـكرُّمي

ومنها: احترام المختلف دينيًّا أو عرقيًّا أو ثقافيًّا ، باحترام حقوقه المادية والمعنوية ، فللآخر حق احترام جسده وماله وممتلكاته ، وحريته وكرامته ، وعقيدته ، والإسلام دين يحترم الإنسان ، ويدعو إلى احترامه وتكريمه ، حيث يقول سبحانه : ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾[3]، ويقول تعالى: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾[4]، ويقول (عز وجل): ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إليهمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ

(١) من شعر الشنفرى الأزدي لأبي فيد مؤرج بن عمرو بن الحارث السدوسي ، ص: ٥ ، وشرح المبرد على لامية العرب ، ص: ١٣ .

(٢) ديوان عنترة بن شداد، ص: ١٨٥ .

(٣) الإسراء: ٧٠.

(٤) البقرة: ٢٥٦.

الْمُقْسِطِينَ﴾[1]، ويتجلَّى ذلك حين مرَّت جَنازة ، فقام لها نبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، فقيل: يَا رَسُولَ الله إِنَّهَا جِنَازَةُ يَهُودِيٍّ! قَالَ: (إِذَا رَأَيْتُمُ الجِنَازَةَ فَقُومُوا)[2].

ومنها: احترام الكبير سنًّا أو مقامًا ، وتوقيره ، وتقديره ، حيث يقول نبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَيُوَقِّرْ كَبِيرَنَا)[3]، ويقول (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (أَنْزِلُوا النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ)[4]، وقد تجلت تلك القيمة حين أمر نبيُّنا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) الصحابة - رضي الله عنهم- بالقيام إلى سيدنا سعد بن

---

(١) الممتحنة: ٨.

(٢) متفق عليه: صحيح البخاري ، كتاب الجنائز، بَابُ مَنْ قَامَ لِجَنَازَةِ يَهُودِيٍّ ، حديث رقم ١٣٠٧، ١٣١٠ ، ١٣١١ ، وصحيح مسلم ، كتاب الجنائز ، باب القيام للجنازة، حديث رقم ٩٥٨ .

(٣) سنن الترمذي ، أبواب البر والصلة ، بَابُ مَا جَاءَ فِي رَحْمَةِ الصِّبْيَانِ ، حديث رقم ١٩٢١.

(٤) سنن أبي داود، كتاب الأدب ، بَابٌ فِي تَنْزِيلِ النَّاسِ مَنَازِلَهُمْ ، حديث رقم ٤٨٤٢.

معاذ – رضي الله عنه – وقال لهم: (قُومُوا إلى سَيِّدِكُمْ)(١)، وقال سيدنا عمر بن الخطاب – رضي الله عنه–: " أبو بكر سيدُنا، وأعتق سيدَنا – يعني: بلالًا –رضي الله عنه–"(٢)، وسأل نبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أصحابه –رضي الله عنهم– عن شجرة مَثَلُها مَثَلُ المسلم ، فقَالَ: (إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً لاَ يَسْقُطُ وَرَقُهَا ، وَإِنَّهَا مَثَلُ الْمُسْلِمِ ، فَحَدِّثُونِي مَا هِيَ؟) ، فَوَقَعَ النَّاسُ فِي شَجَرِ الْبَوَادِي ، قَالَ عَبْدُ الله: وَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ ، فَاسْتَحْيَيْتُ ، ثُمَّ قَالُوا: حَدِّثْنَا مَا هِيَ يَا رَسُولَ الله قَالَ: (هِيَ النَّخْلَةُ)(٣)، فكانت إجابة ابن عمر

---

(١) متفق عليه: صحيح البخاري ، كتاب الجهاد والسير ، بَابُ إِذَا نَزَلَ العَدُوُّ عَلَى حُكْمِ رَجُلٍ ، حديث رقم ٣٠٤٣ ، وصحيح مسلم ، كتاب الجهاد والسير ، باب جواز قتال من نقض العهد ، حديث رقم ١٧٦٨ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب أصحاب النبي (صلى الله عليه وسلم)، باب مناقب بلال بن رباح مولى أبي بكر الصديق، حديث رقم ٣٧٥٤ .

(٣) متفق عليه: صحيح البخاري ، كتاب العلم ، بَابُ قَوْلِ المُحَدِّثِ: حَدَّثَنَا، وَأَخْبَرَنَا ، وَأَنْبَأَنَا ، حديث رقم ٦١، وصحيح مسلم ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب مثل المؤمن مثل النخلة ، حديث رقم ٢٨١١.

(رضي الله عنهما) صحيحة ، ولكنه مع صغر سنِّه استحيا أن يجيب النبيَّ (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) في حضرة الصحابة الكرام ، وفيهم أبو بكر وعمر-رضي الله عنهما-؛ احترامًا لهما ، ولكبار الصحابة -رضي الله عنهم-.

إن من أرقى صور الاحترام: احترام المعلم ، وتوقيره ، والتواضع له ، والوفاء بحقه ، لا سيما أن الإسلام قد أعلى قدره، وكرمه ، حيث قرن الله (عز وجل) شهادة العلماء بشهادته سبحانه وشهادة الملائكة عليهم السلام ، فقال تعالى: ﴿شَهِدَ الله أَنَّهُ لَا إِلَه إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو العِلْمِ قَائِمًا بِالقِسْطِ لَا إِلَه إِلَّا هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾[١]، ويقول سبحانه:﴿يَرْفَعِ الله الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾[٢]، ويقول نبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ الله بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ

(١) آل عمران: ١٨.

(٢) المجادلة: ١١.

مَنْ فِى السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِى الأَرْضِ ، وَالْحِيتَانُ فِى جَوْفِ الْمَاءِ ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ ، وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلاَ دِرْهَمًا، وَرَّثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ)[1]، وعَنِ الشَّعْبِيِّ قَالَ: "رَكِبَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ ، فَأَخَذَ ابْنَ عَبَّاسٍ بِرِكَابِهِ ، فَقَالَ لَهُ: لا تَفْعَلْ يَا ابْنَ عَمِّ رَسُولِ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، فَقَالَ: هَكَذَا أُمِرْنَا أَنْ نَفْعَلَ بِعُلَمَائِنَا ، فَقَالَ زَيْدٌ: أَرِنِي يَدَكَ، فَأَخْرَجَ يَدَهُ فَقَبَّلَهَا زَيْدٌ ، وَقَالَ: هَكَذَا أُمِرْنَا أَنْ نَفْعَلَ بِأَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّنَا (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) "[2].

ويقول الشاعر[3]:

قُـم لِلـمُـعَلّـِمِ وَفِّـهِ التَّـبـجيـلا   كادَ المُعَـلِّمُ أَن يَكونَ رَسولا

---

(١) سنن أبي داود ، أول كتاب العلم ، باب الحثِّ على طلب العلم ، حديث رقم ٣٦٤١.

(٢) المجالسة وجواهر العلم للدينوري، ٤/ ١٤٦، وعيون الأخبار لابن قتيبة ، ١ / ٣٨٠ ، ٣٨١ .

(٣) مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي لأحمد قبش بن محمد نجيب ٧/ ٣٠٠ .

أَعَلِمتَ أَشرَفَ أَو أَجَلَّ مِنَ الذي يَبني وَيُنشِئُ أَنفُسًا وَعُقولا

فما أحوجنا إلى أن تسود قيمة الاحترام في مجتمعاتنا ؛ وتتحول إلى ثقافة عامة يتعايش بها الصغير والكبير ، والرجل والمرأة ، ويحيا بها المجتمع ويرتقي حتى يعم التآلف والرقي والتقدم والاستقرار .

* * *

المواساة في القرآن الكريم

إن المواساة من القيم الإسلامية النبيلة ، والأخلاق الإنسانية الفاضلة التي يُعين بها الإنسان غيره على التغلب على أحزانه وآلامه، والمتأمل في كتاب الله – عز وجل – يجد أنه قد أولى قيمة المواساة عناية خاصة ، بل إن الله سبحانه تولَّى بنفسه مواساة أنبيائه وأوليائه وأصفيائه ، فهذا سيد الخلق (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) حين آذاه قومه ولاقى منهم الصدود والإعراض واساه ربه – عز وجل – بقوله: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾[1]، أي: اصبر لقضاء ربك فيما حمَّلك من رسالته ، وفيما ابتلاك به من قومك ، فإنك بأعيننا نراك ونحفظك ، ونحوطك ، ونحرسك.

وحين تفطَّر قلبه (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) حزنًا على إعراض قومه عن الاستجابة لنداء الحق ، واساه ربنا – عز وجل – بقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ

---

(١) الطور: ٤٨.

أَسَفًا﴾[1] ، وبقوله سبحانه: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[2] أي: لعلك مُهلِكٌ نفسَك حزنًا بسبب توليهم وإعراضهم عن الحق ، فهذه الآيات وأمثالها نزلت مواساةً وتطييبًا لخاطر نبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، كما واساه ربه سبحانه موجهًا إياه ألا يُحمِّل نفسه فوق طاقتها ، فقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾[4]، ويقول عز وجل:﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ الله يَجْحَدُونَ﴾[5]، فلا تُكلِّف نفسك تكليفًا شاقًّا مُضْنيًا ، فما عليك إلَّا البلاغ والبيان ، أما هداية التوفيق فمن الله وحده ، حيث يقول سبحانه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَن يَشَاء وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[6].

---

(١) الكهف: ٦.
(٢) الشعراء: ٣.
(٣) الرعد: ٤٠.
(٤) الغاشية: ٢٢.
(٥) الأنعام: ٣٣ .
(٦) القصص: ٥٦.

كما أن المتأمل في القرآن الكريم يرى مواساة الله - عـز وجـل - لأم موسى (عليـه السـلام)، حـين أُمِـرت أن تُلقِـي ولـدها (عليـه السلام) في الـيم ، فتفطَّـر قلبُهـا خوفًـا عليـه ، فواسـاها الله - عـز وجل - وطمأن فؤادها، حيث يقول تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[1]، ثم واساها سبحانه وتعالى حين رد ولدها (عليه السلام) إليها ردًّا جميلًا ، حيـث يقـول (جـل شأنه): ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2].

كما جاءت المواساة في القـرآن الكـريم للسـيدة مـريم - عليهـا السلام - ، حين اشتد عليها الأمر، فقالت: ﴿يَالَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا﴾[3]، فأمر الله تعالى مـن يناديهـا ليطمـئن قلبهـا،

---

(١) القصص: ٧.

(٢) القصص: ١٣.

(٣) مريم: ٢٣.

حيث يقول سبحانه: ﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا * وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا * فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾(١).

فصور المواساة كثيرة ، منها : المواساة بالمال ، والمواساة بالنصيحة ، والمواساة بالمشاركة الوجدانية ، والمواساة بالدعاء ، ولقد ذكر لنا القرآن الكريم مواساة الرجل الصالح لسيدنا موسى (عليه السلام) حين خرج خائفًا من قومه ، وقصَّ عليه ما كان من أمر فرعون معه ، فواساه قائلًا: ﴿لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ القَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾(٢)، كما ذكر لنا القرآن الكريم مواساة الملائكة (عليهم السلام) لسيدنا لوط (عليه السلام) حين خاف من قومه ، قائلين له: ﴿لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ﴾(٣).

---

(١) مريم: ٢٤-٢٦.

(٢) القصص: ٢٥.

(٣) العنكبوت: ٣٣.

ولقد وجـه نبينـا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) إلى التحـلِّي بهـذه القيمـة النبيلة ، حيث يقول: (مَن كانَ معهُ فَضْلُ ظَهْرٍ فَلْيَعُدْ به على مَن لا ظَهْرَ له ، وَمَن كانَ له فَضْلٌ مِن زَادٍ فَلْيَعُدْ به على مَن لا زَادَ له)[1]، ويقول (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُنَجِّيَهُ الله مِنْ كَرْبِ يَوْمِ القِيَامَةِ فَلْيُنَفِّسْ عَنْ مُعْسِرٍ، أَوْ يَضَـعْ عَنْهُ)[2]، ويقول (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (لَا يَزَالُ الله فِي حَاجَةِ الْعَبْدِ مَا دَامَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ)[3]، ويقول (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ الله فِي حَاجَتِهِ ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ الله عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ القِيَامَةِ)[4].

---

(١) صحيح مسلم ، كِتَابُ اللُّقَطَةِ ، بَابُ اسْتِحْبَابِ الْمُؤَاسَاةِ بِفُضُولِ الْمَالِ ، حديث رقم ١٧٢٨.

(٢) صحيح مسلم ، كتاب المساقاة ، بَابُ فَضْلِ إِنْظَارِ الْمُعْسِرِ ، حديث رقم ١٥٦٣.

(٣) المعجم الكبير للطبراني، ٥/ ١١٨، حديث رقم ٤٨٠١ ، ٤٨٠٢ .

(٤) متقف عليه: صحيح البخاري ، كِتَاب الْمَظَالِمِ وَالغَصْبِ ، بَابٌ لاَ يَظْلِمُ الْمُسْلِمُ الْمُسْلِمَ وَلاَ يُسْلِمُهُ ، حديث رقم ٢٤٤٢ ، وصحيح مسلم ، كتاب البر والصلة والآداب ، باب تحريم الظلم ، حديث رقم ٢٥٨٠ .

وحين استقر نبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) في المدينة المنورة ، أتاه المهاجرون فَقَالُوا: يَا رَسُولَ الله مَا رَأَيْنَا قَوْمًا أَبْذَلَ مِنْ كَثِيرٍ ، وَلَا أَحْسَنَ مُوَاسَاةً مِنْ قَلِيلٍ مِنْ قَوْمٍ نَزَلْنَا بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ ، لَقَدْ كَفَوْنَا الْمُؤْنَةَ وَأَشْرَكُونَا فِي الْمَهْنَإِ ، حَتَّى لَقَدْ خِفْنَا أَنْ يَذْهَبُوا بِالأَجْرِ كُلِّهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (لَا مَا دَعَوْتُمُ الله لَهُمْ وَأَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِمْ)[1].

كما أثنى (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) على الأشعريين لتحلِّيهم بهذه الفضيلة حين قال: (إِنَّ الأَشْعَرِيِّينَ إِذَا أَرْمَلُوا فِي الغَزْوِ ، أَوْ قَلَّ طَعَامُ عِيَالِهِمْ بِالْمَدِينَةِ جَمَعُوا مَا كَانَ عِنْدَهُمْ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ ، ثُمَّ اقْتَسَمُوهُ بَيْنَهُمْ فِي إِنَاءٍ وَاحِدٍ بِالسَّوِيَّةِ ، فَهُمْ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ)[2].

فما أحوجنا إلى أن نتحلَّى بخلق المواساة بيننا ؛ حتى تشيع روح الأخوة، وتقوى العلاقات في المجتمع، وتسود الألفة والمحبة بينهم.

* * *

(١) سنن الترمذي ، أَبْوَابُ صِفَةِ الْقِيَامَةِ وَالرَّقَائِقِ وَالْوَرَعِ ، باب منه ، حديث رقم ٢٤٨٧.

(٢) سبق تخريجه ، ص ٤٢.

الأسرة سكن ومودة

إن الأسرة أساس المجتمع ، ونواة بنائه ، وبتماسكها واستقرارها يكون تماسك المجتمع واستقراره ؛ لذلك عُني الإسلام ببناء الأسرة عناية كبيرة بما يحقق السكن والمودة والرحمة بين جميع أفرادها ، حيث يقول تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إليها وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(١).

والمتأمل في الآية الكريمة يجد أن الله (عز وجل) بيَّن أن بناء الأسرة من آياته العظيمة ، فجعل سبحانه الزواج سكنًا ، وذلك لأن الرجل يسكن فيه إلى زوجه ، والمرأة تسكن فيه إلى زوجها ، فقد جعل الحق - سبحانه وتعالى - المودة والرحمة من أسس بناء الأسرة ، فالمودة : صفة تبعث على حسن المعاملة ، فيحتمل كل من الزوجين ما قد يَنِدُّ من الآخر ، أو تختلف فيه بعض الطبائع ، حيث

---

(١) الروم: ٢١.

يقول نبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (لا يَفْرَكْ مؤمنٌ مؤمنةً ؛ إنْ كَرِهَ منها خُلُقًا رَضِيَ مِنهَا آخَرَ)[1]، وبذلك تكون الأسرة قائمة على معاني حسن الخلق ، وجميل العشرة ، والرأفة ، وفي ظلال هذه الأسرة المستقرة المتماسكة تنمو الخلال الطيبة ، وتنشأ الذرية الصالحة ؛ فتنتشر السعادة في جنبات البيت.

ولتحقيق السكن والمودة في الأسرة ينبغي التحلي بأمور، منها: المعاملة الطيبة ، والمعاشرة بالمعروف ، حيث يقول الحق سبحانه : ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالمَعْرُوفِ﴾[2]، ويقول نبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا)[3]، ويقول (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (مَا أَفَادَ عَبْدٌ بَعْدَ الْإِسْلَامِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ زَوْجٍ مُؤْمِنَةٍ: إِذَا نَظَرَ إليها سَرَّتْهُ، وَإِذَا غَابَ عَنْهَا حَفِظَتْهُ فِي نَفْسِهَا وَمَالِهِ)[4].

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الرضاع، بَابُ الْوَصِيَّةِ بِالنِّسَاءِ ، حديث رقم ١٤٦٩.

(٢) النساء: ١٩.

(٣) صحيح مسلم، كتاب الرضاع، بَابُ الْوَصِيَّةِ بِالنِّسَاءِ ، حديث رقم ١٤٦٨.

(٤) المعجم الأوسط للطبراني، ٢/ ٣٢٥، حديث رقم ٢١١٥.

ومنها: إنفاق الزوج على أسرته ، بتوفير المأكل والمشرب والملبس، حيث يقول الحق سبحانه : ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾[1]، ويقول سبحانه :﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ﴾[2]، ويقول نبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ مَا تَرَكَ غِنًى، وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى ، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ)[3]، ويقول (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَعُولُ)[4].

ومنها: حفظ الأسرار بين الزوجين ، فكلا الزوجين ستر وسكن للآخر ، وإفشاء الأسرار لا يرضاه دين ، ولا خلق قويم، حيث يقول نبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (إِنَّ من أَشَرِّ النَّاسِ عِنْدَ

---

(١) البقرة: ٢٣٣.

(٢) الطلاق: ٧.

(٣) متفق عليه: صحيح البخاري ، كِتَابُ النَّفَقَاتِ ، بَابُ وُجُوبِ النَّفَقَةِ عَلَى الأَهْلِ وَالعِيَالِ ، حديث رقم ٥٣٥٥، وصحيح مسلم ، كتاب الزكاة ، باب بيان أن اليد العليا خير من اليد السفلى ، حديث رقم ١٠٣٤ .

(٤) السنن الكبرى للنسائي، كِتَابُ عِشْرَةِ النِّسَاءِ، باب إِثْمُ مَنْ ضَيَّعَ عِيَالَهُ،حديث رقم ٩١٣١.

اللهِ مَنْزِلَةً يَوْمَ القِيَامَةِ ، الرَّجُلَ يُفْضِي إلى امْرَأَتِهِ وتُفْضِي إليه ثم يَنْشُرُ سِرَّهَا)[1].

ومنها: المشاركة في تربية الأبناء ، وتنشئتهم تنشئة سوية ، فلا يقتصر دور الزوجين على رعاية الأبناء بتقديم الطعام والشراب والأمور المادية فقط ، بل تعظم هذه الرعاية ببناء القيم والأخلاق في نفوسهم ؛ مما يؤهلهم للقيام بدورهم في رفعة المجتمع وتقدمه، ويكونون بذلك قرة أعين لآبائهم وأمهاتهم في الدنيا والآخرة، حيث يقول سبحانه: ﴿وَالذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾[2]، ويقول نبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ)[3]، وكما تُعنى الأسرة بالأبناء يجب أن تعنى بحقوق الآباء ، حيث

---

(١) صحيح مسلم، كتاب النكاح، بَابُ تَحْرِيمِ إِفْشَاءِ سِرِّ الْمَرْأَةِ، حديث رقم ١٤٣٧.

(٢) الفرقان: ٧٤.

(٣) صحيح مسلم ، كِتَابُ الْوَصِيَّةِ ، بَابُ مَا يَلْحَقُ الْإِنْسَانَ مِنَ الثَّوَابِ بَعْدَ وَفَاتِهِ، حديث رقم ١٦٣١.

يقول سبحانه : ﴿وَقَضَى رَبُّكَ ألا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالوَالدَيْنِ إِحْسَانًا﴾[1]، فيتحقق السكينة والسعادة لكل أفراد الأسرة.

ومنها: المشاورة بين أفراد الأسرة في أمور الحياة ؛ وذلك مما يُشعر كل فرد من أفراد الأسرة بدوره وأهميته ، وقد شاور نبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) زوجَه السيدةَ أم سلمة - رضي الله عنها- في صلح الحديبية ، فكان الخير في مشورتها (رضي الله عنها)[2].

---

(١) الإسراء: ٢٣.

(٢) وهو ما أخرجه الإمام البخاري في صحيحه ، كتاب الشروط ، بَابُ الشُّرُوطِ فِي الجِهَادِ وَالمُصَالحَةِ مَعَ أَهْلِ الحَرْبِ وَكِتَابَةِ الشُّرُوطِ ، حديث رقم ٢٧٣١. وفيه: ".. فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ قَضِيَّةِ الكِتَابِ ، قَالَ رَسُولُ الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) لِأَصْحَابِهِ: " قُومُوا فَانْحَرُوا ثُمَّ احْلِقُوا "، قَالَ: فَوَالله مَا قَامَ مِنْهُمْ رَجُلٌ حَتَّى قَالَ ذَلِكَ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ ، فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ دَخَلَ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ ، فَذَكَرَ لَهَا مَا لَقِيَ مِنَ النَّاسِ ، فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: يَا نَبِيَّ الله ، أَتُحِبُّ ذَلِكَ ، اخْرُجْ ثُمَّ لاَ تُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ كَلِمَةً ، حَتَّى تَنْحَرَ بُدْنَكَ ، وَتَدْعُوَ حَالِقَكَ فَيَحْلِقَكَ ، فَخَرَجَ فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ نَحَرَ بُدْنَهُ ، وَدَعَا حَالِقَهُ فَحَلَقَهُ ، فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ قَامُوا ، فَنَحَرُوا وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَحْلِقُ بَعْضًا حَتَّى كَادَ بَعْضُهُمْ يَقْتُلُ بَعْضًا غَمًّا ، ثُمَّ جَاءَهُ نِسْوَةٌ مُؤْمِنَاتٌ فَأَنْزَلَ الله تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ المُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾[الممتحنة: ١٠] .. الحديث.

ولا شك أنَّ لأهل الزوجين دورًا كبيرًا في الحفاظ على كيان الأسرة ، واستقرارها ، وذلك من خلال دعم أواصر الحب والاحترام والسكن والمودة بينهما ، واحترام خصوصياتهما واحتواء الخلافات بإبداء النصح والإرشاد لهما ، حيث يقول تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا التِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾[1]، ويقول (عز وجل): ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾[2]، فجدير بنا أن نحقق السكن والمودة في بيوتنا ، حتى يسود الحب والتآلف والاستقرار في المجتمع كله .

* * *

(١) الإسراء: ٥٣.

(٢)النساء: ٣٥.

تنظيم النسل ومتغيرات العصر

خلق الله (عز وجل) الإنسان لغاية كبرى ، ورسالة سامية ، وطلب منه عمارة الأرض ، والإصلاح فيها ، حيث يقول تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾(١)، وهذا يتطلب بناء إنسان قوي ، قادر على الوفاء بحق دينه ووطنه.

والمتأمل في الشريعة الإسلامية يجد أنها أولت إعداد الإنسان عناية خاصة ، بداية من تكوين الأسرة مرورًا بمراحل الحمل والولادة والرضاعة ؛ فكفلت له حقه في الرضاعة الطبيعية حولين كاملين ، حتى ينمو في صحة جيدة ، حيث يقول تعالى: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾(٢)، ويقول سبحانه: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾(٣)، وقد عدَّ الفقهاء إيقاع الحمل مع الإرضاع جَوْرًا على حق الرضيع والجنين،

---

(١) هود : ٦١.

(٢) الأحقاف : ١٥.

(٣) البقرة : ٢٣٣.

وسمَّوْا لبن الأم التي تجمع بين الحمل والإرضاع لبنَ الغِيلة ؛ وكأن كُلًّا من الطفلين قد اقتطع جُزءًا من حق أخيه ؛ مما قد يعرض أحدهما أو يعرضهما معًا للضعف.

ومن هنا كانت أهمية تنظيم النسل الذي يعد الآن في واقعنا الراهن ضرورة شرعية ، كما أنه داخل بقوة في باب الأخذ بالأسباب ، فعن أَنَس بْنِ مَالِكٍ – رضي الله عنه– قال: قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ الله: (أَعْقِلُهَا وَأَتَوَكَّلُ ، أَوْ أُطْلِقُهَا وَأَتَوَكَّلُ؟ قَالَ: (اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ)(١).

إن قضية تنظيم النسل لون من ألوان وفاء الوالدين بحقوق أبنائهم ، فكل ربّ أسرة مسئول عن أبنائه في التربية القويمة ، والتعليم الصحيح ، والتنشئة السوية ؛ ليكون عضوًا نافعًا لدينه ، ووطنه ، يقول نبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَعُولُ)(٢)، ويقول ابن عمر– رضي الله عنهما–: (أَدِّب

(١) سبق تخريجه ، ص ٦٢ .

(٢) سبق تخريجه ، ص ١٢٦.

ابْنَكَ ، فَإِنَّكَ مَسْئُولٌ عَنْ وَلَدِكَ مَاذَا أَدَّبْتَهُ ؟ وَمَاذَا عَلَّمْتَهُ)؟[١].

ولا شك أن الأمم التي تحسن تعليم أبنائها ، وإعدادهم ، وتأهليهم ، أمم تتقدم ، وترتقي ، فالعبرة ليست بالكثرة العددية ؛ وإنما بالصلاح والنفع ، فإن القلة التي يُرجى خيرها وبركتها خير من الكثرة التي لا خير فيها ، وهذا ما أكده القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[٢].

والمتدبر في حال الأنبياء يجد أنهم لم يطلبوا من الله تعالى كثرة الأبناء ؛ وإنما طلبوا الذرية الصالحة النافعة ، فهذا سيدنا إبراهيم – عليه السلام– يدعو ربه قائلًا : ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[٣]، وهذا سيدنا زكريا – عليه السلام – يدعو ربه راجيًا: ﴿رَبِّ هَبْ لِي

(١) السنن الكبرى للبيهقي، أَبْوَابِ صَلَاةِ الْإِمَامِ قَاعِدًا بِقِيَامٍ، وَقَائِمًا بِقُعُودٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، بَابُ مَا عَلَى الْآبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ مِنْ تَعْلِيمِ الصِّبْيَانِ أَمْرَ الطَّهَارَةِ وَالصَّلَاةِ، حديث رقم ٥٠٩٨.

(٢) البقرة: ٢٤٩.

(٣) الصافات: ١٠٠.

مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾[1]، كما جاء في القرآن الكريم طلب عباد الرحمن الذرية الصالحة النافعة المباركة التي تسعد بها النفوس ، وتقر بها الأعين ، حيث يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾[2].

ومعلوم أن القلة القوية النافعة خير من الكثرة الضعيفة الهزيلة، يقول نبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمُ الْأُمَمُ مِنْ كُلِّ أُفُقٍ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ عَلَى قَصْعَتِهَا)، قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ الله أَمِنْ قِلَّةٍ بِنَا يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: (أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ ، وَلَكِنْ تَكُونُونَ غُثَاءً كَغُثَاءِ السَّيْلِ ، تُنْتَزَعُ الْمَهَابَةُ مِنْ قُلُوبِ عَدُوِّكُمْ ، وَيَجْعَلُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ) ، قَالَ : قُلْنَا : وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ : حُبُّ الْحَيَاةِ وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ)[3].

إن الأخذ بأسباب العلم في عملية تنظيم النسل يعد ضرورة شرعية

---

(١) آل عمران: ٣٨.

(٢) الفرقان: ٧٤ .

(٣) مسند أحمد، ٣٧/ ٨٢، حديث رقم ٢٢٣٩٧ .

ووطنية ، وله أثره في رقي المجتمع ، وتقدمه ، والمتدبر في قوله (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (تَزَوَّجُوا الوَدُودَ الوَلُودَ ، فَإِنِّي مُكَاثِرٌ بِكُمُ الأُمَمَ)[1]، يجد أن المباهاة لا تكون بالكثرة الضعيفة التي تعيش عالة على غيرها؛ إنما تكون بالكثرة القوية ، الصالحة ، النافعة ، التي بيَّنها نبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) في قوله: (الْمُؤْمِنُ الْقَوِي خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى الله مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيف...)[2].

وهذا ما بيَّنه الصحابة الكرام – وهم خير الناس اقتداءً برسول الله (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فقد خطب سيدنا عَمْرو بن الْعَاصِ – رضي الله عنه– قائلًا: " يَا مَعْشَرَ النَّاسِ، إِيَّايَ وَخِلَالًا أَرْبَعًا ، فَإِنَّهُنَّ يَدْعُونَ إِلَى النَّصَبِ بَعْدَ الرَّاحَةِ ، وَإِلَى الضِّيقِ بَعْدَ السَّعَةِ ، وَإِلَى الْمَذَلَّةِ بَعْدَ الْعِزَّةِ ، إِيَّاكَ وَكَثْرَةَ الْعِيَالِ ، وَإِخْفَاضَ الْحَالِ ، وَالتَّضْيِيعَ لِلْمَالِ، وَالْقِيلَ بَعْدَ الْقَالِ، فِي غَيْرِ دَرَكٍ وَلَا نَوَالٍ"[3]، عن ابْن عُمَرَ – رَضِيَ

(١) سنن أبي داود، كتاب النكاح ، باب في تزويج الأبكار ، حديث رقم ٢٠٥٠.

(٢) صحيح مسلم كتاب الْقَدَرِ، بَابٌ فِي الْأَمْرِ بِالْقُوَّةِ وَتَرْكِ الْعَجْزِ وَالِاسْتِعَانَةِ بِاللهِ وَتَفْوِيضِ الْمَقَادِيرِ لله ، حديث رقم ٢٦٦٤.

(٣) شرح مشكل الآثار للطحاوي، ٨/ ٢٢٨، والتمهيد لابن عبد البر، ٢١/ ٢٩٣.

الله عَنْهُما- أنه سَمِعَ النَّبِيُّ (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) رَجُلًا يَقُولُ: اللهمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ جَهْدِ الْبَلَاءِ ، فَقَالَ: (جَهْدُ الْبَلَاءِ كَثْرَةُ الْعِيَالِ مع قلة الشيء)[1]، فما أحوجنا إلى الفهم الصحيح لديننا ، وواقعنا ، وأن نجتهد فنحسن إلى أبنائنا ، ونعمل على حسن تربيتهم ، وتعليمهم ، وإعدادهم ؛ ليسهموا في بناء الحضارة ، ونهضة البلاد بفكرٍ واعٍ ، وعقلٍ مستنيرٍ ، يقدِّر معنى المسئولية ، ويقوم بها على أكمل وجه ، وفي أفضل صورة .

* * *

(١) جزء فيه ما انتقى ابن مردويه على الطبراني، ص: ٣٦٢ ، حديث رقم ١٧٣ .

النظافة سلوك حضاري وإنساني

إن الدين الإسلامي قد جاء لبناء مجتمع إنساني مثالي متكامل في جميع النواحي الأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وأيضًا الصحية ، صيانة لحياة المسلمين والإنسانية جمعاء.

لقد اهتم الإسلام بصحة الإنسان اهتمامًا عظيمًا فحثَّهُ على النظافة ، وأمره بها ، لأنها من أسباب صحة الأبدان ، فأخبرنا (سبحانه وتعالى) أنه أنزل من السماء ماءً طهورًا ، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾(١)، هذا الماء الطهور هو نظافةٌ للأبدان وسلامةٌ لها ، كما أخبرنا تبارك وتعالى أنه يحب التوابين ويحب المتطهرين ، فقال: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾(٢)، وعَنْ سعد بن أبي وقاص (رضي الله عنه) أَنَّ النَّبِيَّ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: " إِنَّ الله طَيِّبٌ يُحِبُّ الطَّيِّبَ ، نَظِيفٌ يُحِبُّ النَّظَافَةَ ، كَرِيمٌ يُحِبُّ الكَـرَمَ ، جَوَادٌ يُحِبُّ

---

(١) الفرقان: ٤٨.

(٢) البقرة: ٢٢٢.

الجُودَ ، فَنَظِّفُوا – أُرَاهُ قَالَ – أَفْنِيَتَكُمْ وَلَا تَشَبَّهُوا بِاليَهُودِ"[1].

ولما كانت النظافة ضرورية في حياة الإنسان ، لازمة له ، جعلها الإسلام نصف الإيمان ، فعَنْ أَبِي مَالِكٍ الأَشْعَرِيِّ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله (صلى الله عليه وسلم) : (الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ وَالْحَمْدُ لله تَمْلَأُ الْمِيزَانَ ، وَسُبْحَانَ الله وَالْحَمْدُ لله تَمْلَآَنِ – أَوْ تَمْلَأُ – مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَالصَّلَاةُ نُورٌ ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَايِع نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا)[2].

واهتمام الإسلام بالنظافة لا يدانيه اهتمام في الشرائع الأخرى، فلم يعد ينظر إليها على أنها مجرد سلوك إنساني مرغوب فيه أو متعارف عليه اجتماعيًّا يحظى صاحبه بالقبول الاجتماعي فقط ، بل جعلها الإسلام قضيةً إيمانيةً تتصل بالعقيدة ، يُثاب فاعلها ويأثم تاركها.

---

(١) سنن الترمذي ، أبواب الأدب ، باب في غَسْلِ الثوب وفي الخُلْقانِ ، حديث رقم ٢٧٩٩.

(٢) صحيح مسلم، كتب الطهارة ، بَابُ فَضْلِ الْوُضُوءِ ، حديث رقم ٢٢٣.

ومن ثَمَّ فإن الإسلام يأخذ بيد أتباعه إلى العيش في بيئة طاهرة نقية ، ويدعوهم إلى الحفاظ على البيئة التي يعيش فيها الإنسان ، إيمانًا منه بما للبيئة من أثر خطير على صحة الإنسان ومعاشه وأخلاقه ، وهو بذلك قد سبق كل المنظمات العالمية في الدعوة إلى الاهتمام بالبيئة والحفاظ عليها ، فأرسى مجموعة من المبادئ التي تعتبر من أهم الإجراءات الوقائية للحفاظ على البيئة البشرية ، ويتمثل ذلك في عنايته بطهارة الإنسان ونظافته من خلال الدعوة إلى تنظيف الجسد والثياب ، فشرع الوضوء للصلوات الخمس في اليوم والليلة ، وأوجب الغسل من الجنابة ، فقال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ الله لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ

تَشْكُرُونَ﴾[1]، وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾[2]، وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله - رضي الله عنهما- قَالَ: (أَتَانَا رَسُولُ الله (صلى الله عليه وسلم) فَرَأَى رَجُلاً شَعِثًا قَدْ تَفَرَّقَ شَعْرُهُ ، فَقَالَ : أَمَا كَانَ يَجِدُ هَذَا مَا يُسَكِّنُ بِهِ شَعْرَهُ، وَرَأَى رَجُلًا آخَرَ وَعَلَيْهِ ثِيَابٌ وَسِخَةٌ فَقَالَ : أَمَا كَانَ هَذَا يَجِدُ مَاءً يَغْسِلُ بِهِ ثَوْبَهُ)[3].

وقد حثَّ النبي (صلى الله عليه وسلم) على استخدام السواك وتطهير الفم من بقايا الطعام ، فعن أبي هريرة - رضي الله عنه- أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قَالَ : (لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي- أَوْ عَلى النَّاسِ- لَأَمَرتُهُمْ بِالسِّواكِ مَعَ كُلِّ صَلَاةٍ)[4].

---

(١) المائدة:٦.

(٢) المدثر:١- ٤.

(٣) سنن أبي داود، كتاب اللباس، باب في غَسْلِ الثوب وفي الخُلْقانِ، حديث رقم ٤٠٦٢.

(٤) صحيح البخاري، كِتَابُ الجُمُعَةِ، بَابُ السِّوَاكِ يَوْمَ الجُمُعَةِ، حديث رقم ٨٨٧.

والذي لا شك فيه أن كثيرًا من الأوبئة إنما تنتقل نتيجة عدم العناية بالنظافة ، وأن إجراءات وزارة الصحة الوقائية لأكثر الأمراض تدعو إلى غسل اليدين قبل الأكل وبعده ، وإلى التهوية الجيدة للمكان ، وإلى غسل الفاكهة والخضر غسلًا جيدًا ، وإلى حسن الطهي ونظافة أدواته ، وكل هذا ينبثق من روح الإسلام وحثه على النظافة.

ففي الوقت الذي نجد فيه من ينظف ويجمل الشوارع والمجتمع نجد من يتعمد أن يلقي بالقمامة وبمخلفات الحفر والبناء في الطرقات العامة دون حرمة أو مراعاة لحقوق الطريق ، فيجب الحفاظ على الطريق العام الذي يمر الناس فيه ، وعلى نظافته وألّا يلقي الناس فيه أذي ؛ بل عليهم أن يمنعوا الأذى ، ففي الحديث عَنْ أَبِى سَعِيدٍ الْخُدْرِىِّ - رضي الله عنه- عَنِ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ : (إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ فِي الطُّرُقَاتِ) قَالُوا: يَا رَسُولَ الله مَا لَنَا بُدٌّ مِنْ مَجَالِسِنَا نَتَحَدَّثُ فِيهَا ، قَالَ رَسُولُ الله (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (فَإِذَا أَبَيْتُمْ إِلَّا الْمَجْلِسَ فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ) قَالُوا : وَمَا

حَقُّهُ؟، قَالَ: (غَضُّ الْبَصَرِ، وَكَفُّ الْأَذَى، وَرَدُّ السَّلَامِ وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ)(١).

* * *

(١) متفق عليه: صحيح البخاري ، كتاب المظالم والغصب ، باب أفنية الدور والجلوس فيها ، حديث رقم ٢٤٦٥، وصحيح مسلم ، كتاب اللِّبَاسِ وَالزِّينَةِ، بَابُ النَّهْيِ عَنِ الْجُلُوسِ فِي الطُّرُقَاتِ وَإِعْطَاءِ الطَّرِيقِ حَقَّهُ ، حديث رقم ٢١٢١. واللفظ له .

التكافل المجتمعي
(حقوق الوالدين والمسنين والضعفاء أنموذجًا)

إن رسالة الإسلام رسالة إنسانية ، وبر، ورحمة ، ورُقِيٌّ ، تهدف إلى أن يحيا الناس حياة كريمة في ظل مجتمع متعاون متكافل على أساسٍ من المواساة والشعور بالآخرين ، والبعد عن مظاهر الأنانية والأثرة والجشع ، حيث يقول نبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (لَيْسَ بِالْمُؤْمِنِ الَّذِي يَبِيتُ شَبْعَانًا وَجَارُهُ جَائِعٌ إِلَى جَنْبِهِ)[1]، وفي رواية: (مَا آمَنَ بِي مَنْ بَاتَ شَبْعَانًا وَجَارُهُ جَائِعٌ إلى جَنْبِهِ وَهُوَ يَعْلَمُ بِهِ)[2]، ويقول (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (إِنَّ لله عِنْدَ أَقْوَامٍ نِعمًا يُقِرُّهَا عِنْدَهُمْ مَا كَانُوا فِي حَوَائِجِ النَّاسِ ، مَا لَمْ يَمَلُّوهُمْ فَإِذَا مَلُّوهُمْ نَقَلَهَا مِنْ عِنْدِهِمْ إلى غَيْرِهِمْ)[3].

وإذا كانت تلك القيم الدينية والإنسانية والمجتمعيـة مطلوبة بين

---

(١) المستدرك للحاكم ، كتاب البيوع ، حديث رقم ٢١٦٦ .

(٢) المعجم الكبير للطبراني، ١/ ٢٥٩، حديث رقم ٧٥١.

(٣) المعجم الأوسط للطبراني، ٨/ ١٨٦، حديث رقم ٨٣٥٠.

الناس جميعًا ؛ فإنها تكون أكثر أهمية وثوابًا وقت الشدائد والأزمات ، وأكثر تأكدًا تجاه الضعفاء والأولى بالرعاية ، وإذا كانت الصدقة على الفقير صدقة فإنها على ذي الرحم صدقة وصلة.

أما حق الوالدين وبرهما فثوابه لا نظير له ، فقد أمرنا الحق سبحانه وتعالى بتمام البر والإكرام لهما ، حيث يقول عز وجل في كتابه العزيز : ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾(١).

ولا شك أنَّ بر الوالدين دأب أهل الفطر السوية ، وهو مما اتفقت عليه الشرائع السماوية ، كما أنه خلق الأنبياء والمرسلين ، فهذا نبي الله يحيى (عليه السلام) يقول الله تعالى في حقه : ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾(٢)، ويقول تعالى على لسان عيسى (عليه

---

(١) الإسراء: ٢٣، ٢٤.

(٢) مريم: ١٤.

السلام): ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾[1]، وقد زَارَ نبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَبْرَ أُمِّهِ ، فَبَكَى وَأَبْكَى مَن حَوْلَهُ[2]؛ برًّا بها وشوقًا إليها.

وللوالدين على الأبناء حقوق عديدة ، منها : كمال التوقير والاحترام والطاعة ، حيث يقول الحق سبحانه : ﴿ واخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾[3].

وقد رأى سيدنا أبو هريرة – رضي الله عنه – رجلين ، فقال لأحدهما : ما هذا منك؟ فقال : أبي ، فقال : لا تسمِّه بِاسْمِهِ ، ولَا تَمْشِ أَمَامَهُ ، وَلَا تَجْلِسْ قَبْلَهُ)[4].

ومنها : المبالغة في الإحسان إليهما عند الكِبَر، وهذا من رد الجميل

---

(١) مريم: ٣٢.

(٢) ينظر : صحيح مسلم ، كتاب الجنائز ، بَابُ اسْتِئْذَانِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) رَبَّهُ (عَزَّ وَجَلَّ) فِي زِيَارَةِ قَبْرِ أُمِّهِ ، ٢/ ٦٧١ ، حديث رقم ٩٧٦.

(٣) الإسراء: ٢٤.

(٤) الأدب المفرد للبخاري ، بَابُ لَا يُسَمِّي الرَّجُلُ أَبَاهُ ، وَلَا يَجْلِسُ قَبْلَهُ ، حديث رقم ٤٤.

لعطائهما غير المحدود ، حيث يقول الحق سبحانه: ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾(١).

فالموفَّق هو من استجلب دعوة أبويه الصالحة بالإحسان إليهما، فتتحقق سعادته في الدنيا والآخرة، حيث يقول نبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (ثَلَاثُ دَعَوَاتٍ مُسْتَجَابَاتٌ لَا شَكَّ فِيهِنَّ : دَعْوَةُ المَظْلُومِ، وَدَعْوَةُ المُسَافِرِ ، وَدَعْوَةُ الوَالِدِ عَلَى وَلَدِهِ)(٢)، وفي رواية : (وَدَعْوَةُ الوَالِدِ لِوَلَدِهِ)(٣)، فدعوة الوالد لولده وعلى ولده لا تُرد ولا تموت ، أما مَن لا خير فيه لأبويه فلا خير فيه أصلًا ، لا يعاشَر، ولا يصاحَب، ولا يؤمَن غدرُه.

---

(١) الإسراء: ٢٣، ٢٤.

(٢) سنن الترمذي ، أبواب البر والصلة ، بَابُ مَا جَاءَ فِي دَعْوَةِ الوَالِدَيْنِ ، حديث رقم ١٩٠٥ .

(٣) سنن ابن ماجه ، كتاب الدعاء ، بَابُ دَعْوَةِ الْوَالِدِ وَدَعْوَةِ الْمَظْلُومِ ، حديث رقم ٣٨٦٢.

إن الشريعة الغراء كما أكدت على بر الوالدين ، فقد أوصت بإكرام المسنين والضعفاء ، وتوفيتهم حقوقهم من التوقير والاحترام والرعاية ، حتى جعلت إكرامهم من تعظيم الخالق (عز وجل)، حيث يقول نبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (إِنَّ مِنْ إِجْلال الله إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ)[1]، فالْمُسِنُّون هم أهل للتقديم والتكبير والتبجيل ، حيث يقول نبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا ، وَيُوَقِّرْ كَبِيرَنَا)[2]، ويقول (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (يُسَلِّمُ الصَّغِيرُ عَلَى الكَبِيرِ)[3]، ويقول (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) لمن أراد أن يتقدم في الكلام قبل رجلٍ كبير السن: (كَبِّرِ

---

(١) الأدب المفرد للبخاري ، بَابُ إِجْلَالِ الْكَبِيرِ ، حديث رقم ٣٥٧ ، وسنن أبي داود ، كتاب الأدب ، باب في تنزيل الناس منازلهم ، حديث رقم٤٨٤٣ .

(٢) سنن الترمذي ، أبواب البر والصلة ، بَابُ مَا جَاءَ فِي رَحْمَةِ الصِّبْيَانِ ، حديث رقم ١٩١٩.

(٣) صحيح البخاري ، كِتَابُ الِاسْتِئْذَانِ ، بَابُ تَسْلِيمِ القَلِيلِ عَلَى الكَثِيرِ ، حديث رقم ٦٢٣١.

الكُبْرَ)[1]، أي: اقدر التقدُّم في العمر قدرَه ، ولا تتكلم قبل الكبير.

ولقد بلغ من رقيّ هذا الدين أنه لم يفرق بين المسنين والضعفاء باختلاف دياناتهم أو أعراقهم في الإكرام والإحسان وطيب المعاملة ؛ فعندما مَرَّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ- رضي الله عنه - بِشَيْخٍ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ ، يَسْأَلُ عَلَى أَبْوَابِ النَّاسِ ، فَقَالَ: " مَا أَنْصَفْنَاكَ إِنْ كُنَّا أَخَذْنَا مِنْكَ الْجِزْيَةَ فِي شَبِيبَتِكَ ، ثُمَّ ضَيَّعْنَاكَ فِي كِبَرِكَ ، قَالَ: ثُمَّ أَجْرَى عَلَيْهِ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ مَا يُصْلِحُهُ"[2]، فما أحوجنا إلى ترسيخ قيم التكافل والاحترام والاعتراف بالفضل ، حتى تتحقق الألفة والمودة في المجتمع كله.

* * *

---

(١) صحيح البخاري ، كِتَابُ الأدب ، بَابُ إِكْرَامِ الكَبِيرِ ، وَيَبْدَأُ الأَكْبَرُ بِالكَلاَمِ وَالسُّؤَالِ ، حديث رقم ٦١٤٢.

(٢) الأموال لابن زنجويه ، ص١٦٩.

العمل واجب

العمل ليس نافلة ولا رفاهية ، العمل واجب ، العمل ضرورة ، العمل حياة ، العمل عز وشرف ، وقد بين لنا دينُنَا الحنيفُ شرفَ العملِ وأهميتَهُ ، فهو سبيلُ الرقي والتقدم ، والمتأمل في القرآن الكريم يجد فيه دعوة صريحة للعمل الذي تتحقق به عمارة الكون ومصالح البلاد والعباد والخير للدنيا وما فيها ، حيث يقول الحق سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾(١).

إن العمل ضرورة لإعمار الكون وصيانة الحياة ، حيث يقول الحق سبحانه: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾(٢)، ويقول (عز وجل): ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(٣)،

---

(١) الملك: ١٥.

(٢) هود: ٦١.

(٣) الجمعة: ١٠.

فلأهمية العمل جاء الأمرُ به بعد الأمر بالصلاة مباشرة ، وكان سيدنا عِرَاكُ بْنُ مَالِكٍ - رَضِيَ الله عَنْهُ - إِذَا صَلَّى الْجُمُعَةَ انْصَرَفَ فَوَقَفَ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ فَقَالَ : (اللهمَّ إِنِّي أَجَبْتُ دَعْوَتَكَ وَصَلَّيْتُ فَرِيضَتَكَ ، وَانْتَشَرْتُ كَمَا أَمَرْتَنِي ، فَارْزُقْنِي مِنْ فَضْلِكَ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ)(١).

كما أن السنة النبوية المطهرة زاخرةٌ بالدعوة إلى العمل والجدِّ فيه، باعتباره شرفًا يحفظ للإنسان كرامته ، حيث يقول نبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (لَأَنْ يَحْتَطِبَ أَحَدُكُمْ حُزْمَةً عَلَى ظَهْرِهِ ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ أَحَدًا فَيُعْطِيَهُ أَوْ يَمْنَعَهُ)(٢)، ويقول سيدنا عمر (رضي الله عنه): (لَا يَقْعُدُ أحدُكُمْ عن طلب الرزق ، يقول : اللهمَّ ارْزُقْنِي ؛ فَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ السَّمَاءَ لَا تمطر ذهبًا ولا فضة)(٣).

---

(١) تفسير ابْنُ أَبِي حَاتِم ، سورة الجمعة ، ١٠/ ٣٣٥٦.

(٢) صحيح البخاري ، كتاب المساقاة ، بَابُ بَيْعِ الحَطَبِ وَالكَلَإِ ، حديث رقم ٢٣٧٤.

(٣) إحياء علوم الدين ، ٢/ ٦٢ .

ولشرف العمل وأهميته كان الأنبياء (عليهم السلام) يعملون بأيديهم ، حيث يقول نبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (كَانَ دَاوُدُ – عليه السلام- لا يَأْكُلُ إِلَّا مِنْ عَمَلِ يَدِهِ)[1]، ويقول : (كَانَ زَكَرِيَّاءُ نَجَّارًا)[2]، وكان نبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يعمل بنفسه ، ويقوم على خدمة أهله ، تقول السيدة عائشة – رضي الله عنها-: (كَانَ يَخِيطُ ثَوْبَهُ ، وَيَخْصِفُ نَعْلَهُ ، وَيَعْمَلُ مَا يَعْمَلُ الرِّجَالُ فِي بُيُوتِهِمْ)[3]، كما دعانا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) إلى العمل حتى في آخر لحظات حياتنا ، حيث يقول نبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ ، فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ)[4]، وقال لقمان الحكيم لابنه : "يا بُنَيَّ اِستَغنِ بِالكَسبِ

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب البيوع ، بَابُ كَسْبِ الرَّجُلِ وَعَمَلِهِ بِيَدِهِ ، حديث رقم ٢٠٧٣.

(٢) صحيح مسلم ، كتاب الفضائل ، باب فضائل زكرياء عليه السلام ، حديث رقم ٢٣٧٩ .

(٣) مسند أحمد، ٤١/ ٣٩٠، حديث رقم ٢٤٩٠٣.

(٤) مسند أحمد، ٢٠/ ٢٩٦، حديث رقم ١٢٩٨١.

الحَلال عَنِ الفَقرِ ، فَإِنَّهُ مَا افتَقَرَ أحَدٌ قَطُّ إِلَّا أصابه ثلاث خِصال: رِقَّةٌ فِي دِينِهِ ، وضَعفٌ فِي عَقلِهِ ، وذَهابُ مُروءَتِهِ ، وأعظَمُ مِن هذِهِ الثَّلاثِ: اِستِخفافُ النّاسِ بِهِ"[1].

ومن شرف العمل أن الشريعة الإسلامية عدَّتْ سعي الإنسان على كسب الحلال لمعاشه ومعاش من يعول ، سعيًا في سبيل الله، فقد ربط القرآن الكريم بين العمل وبين التضحية في سبيل الحق، حيث يقول سبحانه: ﴿وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ الله وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الله﴾[2]، وحينما مرَّ رجلٌ عَلَى نبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَرَأَى أَصْحَابُ رَسُولِ الله (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) مِنْ جَلَدِهِ وَنَشَاطِهِ مَا أَعْجَبَهُمْ ، فَقَالوا : يَا رَسُولَ الله لَوْ كَانَ هَذَا فِي سَبِيلِ الله! فَقَال رَسُولُ الله (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (إِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى وَلَدِهِ صِغَارًا فَهُوَ فِي سَبِيلِ الله ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى أَبَوَيْنِ شَيْخَيْنِ كَبِيرَيْنِ فَهُوَ فِي سَبِيلِ الله ، وَإِنْ كَانَ

(١) إحياء علوم الدين، ٢/ ٦٢ .

(٢) المزمل: ٢٠.

يَسْعَى عَلَى نَفْسِهِ يُعِفُّهَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ الله ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ رِيَاءً وَمُفَاخَرَةً فَهُوَ فِي سَبِيلِ الشَّيْطَانِ)[١].

إن الإسلام لم يطلب منا العمل فحسب ؛ بل حثَّنا على إتقانه ابتغاء مرضاة الله (عز وجل) ، ولقد وعد ربنا سبحانه وتعالى من يتقن عمله بالثواب العظيم ، حيث يقول سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾[٢]، كما أن إتقان العمل من الأمور التي يحبها الله (عز وجل)، حيث يقول نبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (إِنَّ الله يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلا أَنْ يُتْقِنَهُ)[٣].

فأمانة العمل مسؤليَّة في عنق كل عامل أو موظف أو مسئول ، يراقب فيها ربه (عز وجل)، حيث يقول سبحانه: ﴿إِنَّ الله كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[٤]، ويقول (عز وجل): ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا

(١) المعجم الكبير للطبراني، ١٩/ ١٢٩، حديث رقم ٢٨٢.

(٢) الكهف: ٣٠.

(٣) مسند أبي يعلى، ٧/ ٣٤٩، حديث رقم ٤٣٨٦.

(٤) النساء: ١.

تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَال ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾(١)، وعندما سئل نبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) عن الإحسان ، قال : (الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ)(٢).

* * *

---

(١) يونس: ٦١.

(٢) صحيح البخاري ، كِتَابُ تَفْسِيرِ القُرْآنِ ، بَابُ قَوْلِهِ : ﴿إِنَّ الله عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤]، حديث رقم ٤٧٧٧.

التاجر الأمين

إن الإسلام دين يدعو إلى الكسب والعمل ، ويُحَذِّرُ من البطالة والخمول والكسل ، والعمل هو السبيل إلى إعمار الأرضِ ، وتقدم الأوطانِ ، وبناء الحضاراتِ ، حيث يقول الحق سبحانه : ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[1]، وصور الكسب الحلال كثيرة متنوعة ، ومن أفضلها التجارة ، حيث سمى الحق سبحانه أرباحَها في القرآن (فضلَ الله)، وقرن سبحانه ذِكرَ الضاربين في الأرض للتجارة بالمجاهدين في سبيل الله ؛ حيث يقول سبحانه: ﴿وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾[2]، وقد سُئل نبينا (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أيُّ الكسبِ أطيَبُ؟ فقال : (عملُ الرَّجلِ بيدِه ، وَكُلُّ بَيْعٍ مَبْرُورٍ)[3].

ويكفي التجار شرفًا أن نبينا (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) تاجر مع

(١) هود: ٦١.

(٢) المزمل: ٢٠.

(٣) مسند أحمد ، ٢٨/ ٥٠٢ ، حديث رقم ١٧٢٦٥.

عمه أبي طالب ؛ ومع أم المؤمنين خديجة - رضي الله عنها-، فكان (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) خير مثال للتاجر الأمين ، حيث وصفه السَّائب بن أبي السَّائب - رضي الله عنه- بقوله : (كُنْتَ شَرِيكِي فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَكُنْتَ خَيْرَ شَرِيكٍ ، لَا تُدَارِينِي ، وَلَا تُمَارِينِي)(١)، فلم يكن (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يخْفِي عيبًا في سلعة ، ولا يجادِل بالباطل.

وللتاجر الأمين صفات حميدة ، وخصال شريفة ينبغي أن يتحلى بهـا ، منها: الصدق في البيع والشراء ، فالصدقُ يورث البركة في التجارة ، حيث يقول نبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (الْبَيِّعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا، فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَا بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا، وَإِنْ كَتَمَا وَكَذَبَا مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا)(٢).

---

(١) سنن ابن ماجه ، كِتَابُ التِّجَارَاتِ ، بَابُ الشَّرِكَةِ وَالْمُضَارَبَةِ ، حديث رقم ٢٢٨٧.

(٢) متفق عليه: صحيح البخاري ، كتاب البيوع ، بَابُ إِذَا بَيَّنَ الْبَيِّعَانِ وَلَمْ يَكْتُمَا وَنَصَحَا ، حديث رقم ٢٠٧٩، واللفظ له ، وصحيح مسلم ، كتاب البيوع ، بَابُ ثُبُوتِ خِيَارِ الْمَجْلِسِ لِلْمُتَبَايِعَيْنِ ، حديث رقم ١٥٣١.

أما التاجر الكذوب الذي يبيع آخرته بدنياه فهو من الخاسرين في الدنيا والآخرة ، فلا بركة في ماله ، ولا نفع في كسبه ، ولا يُقبل منه عملُه ، حيث يقول (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (اليَمِينُ الكاذبةُ مُنفِّقَةٌ للسلعةِ ، مُمحِقةٌ للبركةِ)[1]، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رضي الله عنه– أَنَّ رَسُولَ الله (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ : (إِذَا أَدَّيْتَ الزَّكَاةَ فَقَدْ قَضَيْتَ مَا عَلَيْكَ، وَمَنْ جَمَعَ مَالًا حَرَامًا ثُمَّ تَصَدَّقَ بِهِ لَمْ يَكُنْ لَهُ فِيهِ أَجْرٌ وَكَانَ إِصْرُهُ عَلَيْهِ)[2].

ومن صفات التاجر الأمين: تمام الأمانة والبيان في البيع والشراء، فالتاجر الأمين لا يغش ولا يخدع ، حيث يقول نبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ

---

(١) مسند البزار، ١٥/ ٧٦، حديث رقم ٨٣١٣. وعند البخاري بلفظ : (الحَلِفُ مُنَفِّقَةٌ لِلسِّلْعَةِ، مُمْحِقَةٌ لِلْبَرَكَةِ). صحيح البخاري، كتاب البيوع ، بَابٌ: ﴿يَمْحَقُ الله الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَالله لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [البقرة: ٢٧٦]، حديث رقم ٢٠٨٧، وعند مسلم بلفظ: (الْحَلِفُ مَنْفَقَةٌ لِلسِّلْعَةِ، مَمْحَقَةٌ لِلرِّبْحِ) صحيح مسلم، كتاب المساقاة ، بَابُ النَّهْيِ عَنِ الْحَلِفِ فِي الْبَيْعِ ، حديث رقم ١٦٠٦ .

(٢) السنن الكبرى للبيهقي ، كِتَابُ الزَّكَاةِ ، بَابُ الدَّلِيلِ عَلَى أَنَّ مَنْ أَدَّى فَرْضَ الله فِي الزَّكَاةِ فَلَيْسَ عَلَيْهِ أَكْثَرُ مِنْهُ إِلَّا أَنْ يَتَطَوَّعَ سِوَى مَا مَضَى فِي الْبَابِ قَبْلَهُ ، حديث رقم ٧٢٤٠.

وَسَلَّمَ): (المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِمِ ، وَلا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ بَاعَ مِنْ أَخِيهِ بَيْعًا فِيهِ عَيْبٌ إِلا بَيَّنَهُ لَهُ)(١)، وقد مَرَّ نبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) عَلَى صُبْرَةِ طَعَامٍ ، فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِيهَا ، فَنَالَتْ أَصَابِعُهُ بَلَلًا ، فَقَالَ: مَا هَذَا يَا صَاحِبَ الطَّعَامِ؟! قَالَ: أَصَابَتْهُ السَّمَاءُ يَا رَسُولَ الله ، قَالَ: (أَفَلا جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ كَيْ يَرَاهُ النَّاسُ؟ مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنِّي)(٢).

ومنها : السماحة في البيع والشراء ، والتحلي بمكارم الأخلاق ، وحسن المعاملة ، حيث يقول نبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (رَحِمَ الله رَجُلًا سَمْحًا إِذَا بَاعَ ، وَإِذَا اشْتَرَى ، وَإِذَا اقْتَضَى)(٣)، ويقول (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (أَلا أُخْبِرُكُمْ بِمَنْ يَحْرُمُ عَلَى النَّارِ أو بمن

(١) سنن ابن ماجه ، كتاب التجارات ، بَابُ مَنْ بَاعَ عَيْبًا فَلْيُبَيِّنْهُ ، حديث رقم ٢٢٤٦.

(٢) صحيح مسلم ، كِتَابُ الْإِيمَان ، بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -:«مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا»، حديث رقم ١٠٢.

(٣) صحيح البخاري ، كتاب البيوع ، بَابُ السُّهُولَةِ وَالسَّمَاحَةِ فِي الشِّرَاءِ وَالبَيْعِ، وَمَنْ طَلَبَ حَقًّا فَلْيَطْلُبْهُ فِي عَفَافٍ ، حديث رقم ٢٠٧٦.

تَحْرُمُ عَلَيْهِ النَّارُ؟ عَلَى كُلِّ قَرِيبٍ هَيِّنٍ سَهْلٍ)[1].

إن من صفات التاجر الأمين: الوطنية الصادقة ، وهي ليست أقوالًا أو مجرد شعارات تُرفَع ، إنما هي عطاء وتضحيات ، فالتاجر الوطني الحكيم ينطلق في معاملاته من التزام ديني وشعور إنساني، فلا يبيح لنفسه أن تكثر ثروته في أوقات الأزمات على حساب الفقراء والمحتاجين ؛ لذلك فهو يبتعد عن كل صور الجشع والغش والاحتكار والاستغلال ، فإذا كانت هذه الأدواء مرفوضة مذمومة خبيثة في كل وقت فإنها في وقت الأزمات أشد جرمًا وإثمًا ، حيث يقول سبحانه: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾[2]، ويقول نبينا (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (الْجَالِبُ مَرْزُوقٌ ، وَالْمُحْتَكِرُ مَلْعُونٌ)[3]،

---

(١) سنن الترمذي ، أَبْوَابُ صِفَةِ الْقِيَامَةِ وَالرَّقَائِقِ وَالْوَرَعِ ، باب منه ، حديث رقم ٢٤٨٨.

(٢) المطففين: ١-٣.

(٣) سنن ابن ماجه، كتاب التجارات ، بَابُ الْحُكْرَةِ وَالْجَلْبِ ، حديث رقم ٢١٥٣.

ويقول (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (مَن دخلَ في شيءٍ من أسعارِ المسلمينَ ليُغْليَهُ عليهِم فإنَّ حقًّا علَى الله تبارَكَ وتعالَى أن يُقْعِدَهُ بعِظَمٍ منَ النَّارِ يومَ القيامةِ)[1].

إنَّ التاجر الصدوق الأمين إذا خفَّض هامش ربحه إلى أدنى درجة ممكنة في وقت الأزمات ، فإن ما يخفِّضه صدقة له بنيَّته ، حيث يقول نبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (التَّاجِرُ الصَّدُوقُ الأَمِينُ مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ)[2]؛ ذلك لأن من يقدم الآخرة على العاجلة ، ولا يحتكر ولا يغش ، ويُراعي أحوال الناس ، حُقَّ له أن يكون مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا ، فالتاجر الصادق الأمين يرفعه صدقه وأمانته وحرصه على المجتمع ومراعاته لظروف الناس بقدر ما ترفعه صلاته وصدقته وعبادته لله تعالى .

* * *

---

(١) مسند أحمد ، ٣٣/ ٤٢٥ ، حديث رقم ٢٠٣١٣.

(٢) سنن الترمذي ، أبواب البيوع ، بَابُ مَا جَاءَ فِي التُّجَّارِ وَتَسْمِيَةِ النَّبِيِّ - صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إِيَّاهُمْ ، حديث رقم ١٢٠٩.

الصانع المتقن

إن للصناعة في الإسلام شأنًا عظيمًا ومكانةً عاليةً ، فهي أساس نهضة الأمم وتطورها ، وبازدهارها تتوفر فرص العمل ، ويتحقق التقدم الاقتصادي ، والرقي المعيشي ؛ والمتأمل في القرآن الكريم يجدُ إشاراتٍ واضحةً إلى العديد من الصناعات ؛ تأكيدًا على فضلها وأهميتها ، حيث يقول الحق سبحانه : ﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾(١)، ويقول سبحانه : ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا﴾(٢)، ويقول تعالى : ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ﴾(٣)، ويقول تعالى: ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ﴾(٤) ، ويقول تعالى : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ

---

(١) الحديد : ٢٥ .

(٢) الأعراف : ٢٦.

(٣) النحل : ٨١.

(٤) سبأ : ١٣.

الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ﴾[١].

ولشرف الصناعة كان صفوة الخلق من أنبياء الله ورسله- عليهم السلام- من أصحاب الصنائع والحرف ، وكانوا مضرب المثل في المهارة والإتقان ، حيث كان سيدنا نوح - عليه السلام- يعمل في صناعة السفن ، يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾[٢]، وكان سيدنا داود- عليه السلام- حدَّادًا، يقول تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾[٣]، وفي سيدنا زكريا - عليه السلام - يقول نبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (كَانَ زَكَرِيَّاءُ نَجَّارًا)[٤].

والإتقان والجودة والتميز من أهم الصفات التي يجب أن يتحلى

---

(١) النحل: ٨٠.

(٢) هود: ٣٧.

(٣) الأنبياء: ٨٠.

(٤) صحيح مسلم ، كتاب الفضائل ، باب فضائل زكرياء عليه السلام ، حديث رقم ٢٣٧٩.

بها الصانع ؛ ولقد لفت الحق سبحانه أنظارنا إلى الإتقان ، حيث خلق سبحانه كل شيء بإتقان مُعجز ، يقول تعالى : ﴿صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾(١)، وأوجب علينا سبحانه الإحسان في كل شيء ، يقول سبحانه : ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾(٢)، ويقول نبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (إِنَّ اللهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ)(٣).

ولقد عَرَف عَهْدُ نَبِيِّنَا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) عددًا من المهن والحرف والصناعات الذي سجل جانبًا منها أبو الحسن الخزاعي في كتابه: (تخريج الدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية)، فذكر فيه : من كان يعلم الطب في عهد الرسول (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، وذكر النساجين ،

---

(١) النمل: ٨٨.

(٢) البقرة: ١٩٥.

(٣) صحيح مسلم ، كِتَابُ الصَّيْدِ وَالذَّبَائِحِ وَمَا يُؤْكَلُ مِنَ الْحَيَوَانِ ، بَابُ الْأَمْرِ بِإِحْسَانِ الذَّبْحِ وَالْقَتْلِ ، وَتَحْدِيدِ الشَّفْرَةِ ، حديث رقم ١٩٥٥.

والخياطين ، والنجارين ، والحدادين ، والصواغين ، والدباغين ، والخوّاصين ، والبنائين ، والتجار ، وقد ضمن الكتاب فصلين كاملين ، أحدهما للحرفة والآخر للصناعة.

والصانع المتقن يدفعه إيمانه بالله (عز وجل) ومراقبته له إلى تجويد عمله ، والتميز فيه ، حيث يقول سبحانه : ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾(١)، كما أنه يمتثل أوامر الله (عز وجل) ، حيث يقول تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى الله عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(٢)، ويقول نبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (إِنَّ اللهَ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتْقِنَهُ)(٣).

---

(١) يونس: ٦١.

(٢) التوبة: ١٠٥.

(٣) مسند أبي يعلى، ٧/ ٣٤٩، حديث رقم ٤٣٨٦.

ومن إتقان الصانع سرعةُ إنجازه عملَه في موعده ، وهذا شأن الصُّناع في المجتمعات المتحضرة ، كما أن وفاء الصانع بعمله في الموعد المحدد له صفة كريمة تدل على شرف النفس وقوة العزيمة ، حيث يقول الحق سبحانه : ﴿وَأَوفُوا بِالعَهدِ إِنَّ العَهدَ كَانَ مَسؤُولًا﴾(١)، وقد أمر الله (عز وجل) بها ، وامتدح بها عباده المؤمنين ، فقال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾(٢)، ويقول تعالى : ﴿وَالَّذِينَ هُم لأَمَانَاتِهِم وَعَهدِهِم رَاعُونَ﴾(٣).

إن الصانع المتقن كما أنه ينطلق من دافع ديني فإنه ينطلق أيضًا من دافع وطني ، فإنما يحمله حبه لوطنه ، وإيمانه بدوره في رقيه وتقدمه على إحسان عمله والجودة والتميز فيه ، حيث إن وطننا الغالي مصر في مرحلة دقيقة من تاريخه ، وهذا يقتضي منا جميعًا أن نعمل مجدين مخلصين لنهضة الوطن وتقدمه، فالجميع بعملهم الجاد المُتقَن في طاعةٍ لله – عز وجل– ولا ينهض الوطن إلا بالجميع.

---

(١) الإسراء : ٣٤.

(٢)المائدة : ١.

(٣)المعارج : ٣٢.

إنَّ الناس لن يحترموا ديننا ما لم نتفوق في أمور دنيانا ، فإن تفوقنا في أمور دنيانا احترم الناس ديننا ودنيانا ، وإن الاقتصاد القوي يعني دولة عزيزة شامخة ذات مكانة وذات كفاية ذاتية ، وهو ما تسير عليه- بفضل الله- مصرنا العزيزة في جمهوريتنا الجديدة.

*　　*　　*

الـزارع المجـد

إن الزراعة من أهم الركائز الاقتصادية لبناء الدول واستقرارها؛ فهي صمام الأمان لتوفير الغذاء ، وتحقيق الاكتفاء ، والمتأمل في القرآن الكريم يجد أنه سبحانه ذكر الزراعة في أكثر من موضع ؛ تنبيهًا على أهميتها، حيث يقول الحق سبحانه : ﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ﴾(١) ، ويقول سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ﴾(٢).

وقد جعل الشرعُ الحنيفُ الزراعةَ مِن قَبيل العبادة التي تحقق الثواب لصاحبها ، حيث يقول نبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (مَا مِن مُسلم يَغرِسُ غَرْسًا أو يَزرَعُ زَرْعًا فيأكُلُ مِنه طَيرٌ أو إنسَانٌ أو بهيْمَةٌ إلا كان لهُ بهِ صَدقَةٌ)(٣)، كما أرشدنا نبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) إلى

(١) الرعد : ٤.

(٢) السجدة : ٢٧.

(٣) متفق عليه: صحيح البخاري ، كتاب المزارعة ، بَابُ فَضْلِ الزَّرْعِ وَالغَرْسِ إِذَا=

المداومة على الزراعة إلى آخر لحظة في الحياة ، حيث يقول (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (إِنْ قَامَتِ الساعةُ وَفِي يَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلةٌ ، فَإِنِ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا تَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَها فليغرِسْها)[1].

ولشرف الزراعة جعلها الإسلام من الصدقات الجارية التي يمتد ثوابها بعد موت صاحبها ، يقول (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (سبعٌ يجري للعبدِ أجرُهنَّ وَهُوَ فِي قَبْرِه بَعْدَ مَوْتِهِ : مَنْ علَّم عِلْمًا ، أَوْ كَرَى نَهْرًا ، أَوْ حفَرَ بِئْرًا ، أَوْ غَرَسَ نَخْلًا ، أَوْ بَنَى مَسْجِدًا ، أَوْ وَرَّثَ مُصْحَفًا ، أَوْ تَرَكَ وَلَدًا يَسْتَغْفِرُ لَهُ بَعْدَ مَوْتِه)[2] ؛ ذلك أن الزارع شارك في عمارة الحياة ، ولم يعش لنفسه فقط ، إنما عاش مخلصًا ، باذلًا الخير لمجتمعه ولوطنه .

وللزارع المُجد منزلةٌ عظيمةٌ ومكانةٌ ساميةٌ ؛ فهو يسهم في قوة

= أُكِلَ مِنْهُ ، حديث رقم ٢٣٢٠، وصحيح مسلم ، كِتَابُ الْمُسَاقَاةِ ، بَابُ فَضْلِ الْغَرْسِ وَالزَّرْعِ ، حديث رقم ١٥٥٣ .

(١) الأدب المفرد للبخاري ، بَابُ اصْطِنَاعِ الْمَالِ ، حديث رقم ٤٧٩ .

(٢) مسند البزار، ١٣/ ٤٨٣، حديث رقم ٧٢٨٩.

الوطن وتحقيق استقراره ، وتحقيق فرص عمل لمواطنيه ؛ فالأمة التي لا تملك غذاءها لا تملك قرارها ، والزارع بجده في زراعته يحقق الفَلَاح لنفسه ولوطنه ، في همَّة عالية ، وتضحية صادقة ، ممتثلاً قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى الله عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُون﴾(١)، وملتمسًا دعوة نبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، حيث يقول (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (اللهمَّ بَارِكْ لِأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا)(٢).

والزارع المجد لا يعرف الارتجال ولا العشوائية ، إنما يعمل بتخطيط واعٍ ، وأخذٍ بأسباب العلم والعمل ، والمتأمل في قصة سيدنا يوسف – عليه السلام- في القرآن الكريم يَلْمَحُ تخطيطًا محكمًا للاقتصاد الزراعي أسسه نبي الله الكريم يوسف – عليه السلام–، بعدما علم من خلال الرؤيا الصادقة بأزمة غذائية ستصيب المنطقة كلها، فاقترح خطة إصلاح ونفَّذها ، فكان فيها الخير والبركة على

---

(١) التوبة: ١٠٥.

(٢) سنن أبي داود، كتاب الجهاد، بَابٌ فِي الِابْتِكَارِ فِي السَّفَرِ، حديث رقم ٢٦٠٦.

مصر وما حولها ، حيث يقول سبحانه : ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾(١).

كما أن الزارع المجد يستشير أهل الخبرة والعلم والاختصاص في زراعته ، ليقدم منتجًا عالي الجودة ينفع وطنه ومجتمعه ، ممتثلًا قول الحق سبحانه : ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾(٢)، ومقتديًا بنبينا (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) في حديث تأبير النخل ، فعَنْ أَنَسٍ- رضي الله عنه - أَنَّ النَّبِيَّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) مَرَّ بِقَوْمٍ يُلَقِّحُونَ ، فَقَالَ: (لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا لَصَلُحَ) قَالَ : فَخَرَجَ شِيصًا ، فَمَرَّ بِهِمْ ، فَقَالَ : (مَا لِنَخْلِكُمْ؟) قَالُوا : قُلْتَ كَذَا وَكَذَا ، قَالَ : (أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ)(٣).

---

(١) يوسف: ٤٧-٤٩.

(٢) النحل: ٤٣.

(٣) صحيح مسلم، كتاب الفضائل ، بَابُ وُجُوبِ امْتِثَالِ مَا قَالَهُ شَرْعًا ، دُونَ مَا ذَكَرَهُ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) مِنْ مَعَايِشِ الدُّنْيَا عَلَى سَبِيلِ الرَّأْيِ ، حديث رقم ٢٣٦٣.

إن الزارع المجد تحمله وطنيتـه على أداء دوره في مقاومة محاولات أعمال التجريف والتبوير للأراضي الزراعية والبناء عليها ، والتي تؤدي إلى نقص المحاصيل ، وزيادة الاستيراد ؛ مما يشكل عبئًا على الدولة ، وهذا ضررٌ منهيٌ عنه ، حيث يقول نبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (لا ضَرَرَ وَلا ضِرَار)[1]، وهو ينطلق من وطنيته في تسويق محصوله بعد حصاده ، فهو لا يعرف استغلالًا لأزمات الناس ولا متاجـرةً بمعانـاتهـم ، وقد حـرم الإسـلام كل صـور الاحتكار والتضييق على الناس ، حيث يقول نبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (لَا يَحْتَكِرُ إِلَّا خَاطِئٌ)[2]، ويقول (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (مَنِ احْتَكَرَ طَعَامًا أربعين لَيْلَة فَقَدْ بَرِئَ مِنَ الله تعالَى ، وبرِئ الله تعالَى مِنْه)[3].

❊ ❊ ❊

---

(١) سنن ابن ماجه ، كِتَابُ الْأَحْكَامِ ، بَابُ مَنْ بَنَى فِي حَقِّهِ مَا يَضُرُّ بِجَارِهِ ، حديث رقم ٢٣٤١.

(٢) صحيح مسلم، كتاب المساقاة ، بَابُ تَحْرِيمِ الِاحْتِكَارِ فِي الْأَقْوَاتِ ، حديث رقم ١٦٠٥.

(٣) مسند أحمد، ٨/ ٤٨١، حديث رقم ٤٨٨٠.

أهمية الاستثمار في حياتنا

لقد حث الشرع الحنيف على استثمار المال وتنميته ؛ لتحقيق تقدم الأوطان ورقيها ، من خلال الاكتفاء الذاتي ، والاستقلال الاقتصادي ، وتحقيق التنمية المستدامة ؛ والمتأمل في سيرة نبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يجد أنه عندما قدم المدينة المنورة أنشأ سوق "المناخة"، ليكون سوقًا جديدًا قائمًا على مبادئ الصدق ، والأمانة؛ والسماحة بيعًا وشراءً ، ومجالًا حيويًّا لتسويق ما ينتجه أهل المدينة؛ مما كان له أثر عظيم في استقرار (المدينة المنورة) اقتصاديًّا ، وتقدمها حضاريًّا.

وللاستثمار دور مهم في تفعيل الطاقات البشرية ، وتوفير فرص العمل للشباب ، وتدريب الكوادر المهنية ؛ وذلك باب عظيم من أبواب تفريج الكربات ، حيث يقول نبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا ، نَفَّسَ الله عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ ، يَسَّرَ الله عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا ، سَتَرَهُ الله فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَالله فِي

عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ ، وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا ، سَهَّلَ الله لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ)(١)، ويقول (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (إِنَّ للهِ عَبَّادًا اخْتَصَّهُمْ بِالنِّعَمِ لِمَنَافِعِ الْعِبَادِ ، يُقِرُّهُمْ فِيهَا مَا بَذَلُوهَا، فَإِذَا مَنَعُوهَا نَزَعَهَا مِنْهُمْ ، فَحَوَّلَهَا إِلَى غَيْرِهِمْ)(٢).

وللمستثمر الوطني صفات ينبغي التحلي بها ، منها : إيثاره المصلحة الوطنية العامة على المصلحة الشخصية ، والإسهام في بناء الوطن من خلال التحرك في ضوء أولوياته ، زراعية كانت أم صناعية ، وتقديم ما يحتاجه الوطن منها ولو كان أقل ربحًا ، وهو بتلك الروح الوطنية يرجو أجر النفع العام عند الله – عز وجل–، حيث يقول الحق سبحانه: ﴿ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾(٣)، ويقول سبحانه : ﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾(٤).

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ وَالتَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ ، بَابُ فَضْلِ الِاجْتِمَاعِ عَلَى تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ وَعَلَى الذِّكْرِ ، حديث رقم ٢٦٩٩ .

(٢) المعجم الكبير للطبراني ، ١٣/ ٢٠٦، حديث رقم ١٣٩٢٥ .

(٣) الحج: ٧٧.

(٤) الرعد: ١٧ .

ومنها : تشجيعه البحث العلمي بجميع مجالاته الإنسانية ، والعلمية ، والطبية ، وغيرها ، وبخاصة ما يتعلق بمجال استثماره ، وهو بذلك يؤدي دوره في تنمية الفرد والمجتمع ، وبناء الشخصية الحضارية ، فالإسلام دين علم وفكر وثقافة ، يحترم العقل البشري، ويحث على التفوق في العلوم ، واكتساب الخبرات والمعارف الدينية والدنيوية ؛ حيث يقول الحق سبحانه : ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾[1]، ويقول نبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ الله بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ ، وَإِنَّ الْمَلاَئِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِى السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِى الأَرْضِ ، وَالْحِيتَانُ فِى جَوْفِ الْمَاءِ ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ ، وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلاَ دِرْهَمًا ، وَرَّثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ)[2].

---

(١) العلق : ١.

(٢) سبق تخريجه ، ص ١١٦.

وعلى المستثمر الوطني دور اجتماعيّ تجاه وطنه ، من خلال المساهمة في حل المشكلات التي تواجه المجتمع ، وقد كان نبينا (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يحث الأغنياء من الصحابة – رضي الله عنهم– على تحقيق ذلك الدور الاجتماعي.

وقد تسابق الصحابة – رضي الله عنهم – في هذا الميدان ، فهذا سيدنا عثمان بن عفان – رضي الله عنه – يشتري بئر رومة ، ويجهز جيش العُسرة للدفاع عن الدين والوطن ، قَالَ النَّبِيُّ (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (مَنْ يَحْفِرْ بِئْرَ رُومَةَ فَلَهُ الجَنَّةُ)، فَحَفَرَهَا عُثْمَانُ ، وَقَالَ: (مَنْ جَهَّزَ جَيْشَ العُسْرَةِ فَلَهُ الجَنَّةُ ، فَجَهَّزَهُ عُثْمَانُ)(1)، حتى قال له نبينا

(1) صحيح البخاري، كتاب الوصايا ، بَابُ إِذَا وَقَفَ أَرْضًا أَوْ بِئْرًا، وَاشْتَرَطَ لِنَفْسِهِ مِثْلَ دِلاَءِ المُسْلِمِينَ، حديث رقم ٢٧٧٨، ولفظه: (أَنَّ عُثْمَانَ – رَضِيَ الله عَنْهُ – حِينَ حُوصِرَ أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ ، وَقَالَ: أَنْشُدُكُمُ الله ، وَلاَ أَنْشُدُ إِلَّا أَصْحَابَ النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ: «مَنْ حفَرَ رُومَةَ فَلَهُ الجَنَّةُ»؟ فَحَفَرْتُهَا ، أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ جَهَّزَ جَيْشَ العُسْرَةِ فَلَهُ الجَنَّةُ»؟ فَجَهَّزْتُهُمْ ، قَالَ: فَصَدَّقُوهُ بِمَا قَالَ).

(صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ اليَوْمِ)[1]، ويقول طلحة بن عبد الله بن عوف :" كان أهل المدينة عيالًا على عبد الرحمن بن عوف - رضي الله عنه- ، ثلث يقرضهم ماله ، وثلث يقضي دينه ، ويصل ثلثًا"[2].

إنَّ المستثمر الوطني الغيور على مجتمعه وبلده يستحق منَّا الدعم الكامل ، والتشجيع والمساندة ؛ حيث يقول نبينا (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (لا يَشْكُرُ اللهَ مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ)[3].

فضلًا على أن المستثمر إذا قصد وجه الله - عز وجل- وخدمة وطنه ، فإنه يكون على ثغر عظيم من ثغور الدين والوطن ، يقوم فيه بتأدية ما يتطلبه وطنه ، فإذا تعاونت اتحادات المستثمرين في ذلك قامت مجتمعةً بحاجات أوطانها ، وسدت كفاياتها في مختلف المجالات ، وذلك أمر ثوابه عظيم عند الله- عز وجل-.

---

(١) سنن الترمذي ، أَبْوَابُ الْمَنَاقِبِ ، باب منه ، حديث رقم ٣٧٠١.

(٢) كتاب الأربعين المغنية بعيون فنونها عن المعين لصلاح الدين أبي سعيد خليل ابن الأمير بدر الدين العلائي الشافعي ، ص ٤٠٥.

(٣) سنن أبي داود ، كتاب الأدب ، بَابٌ فِي شُكْرِ الْمَعْرُوفِ ، حديث رقم ٤٨١١.

فهرس الموضوعات

م	الموضوع	الصفحة
١.	تقـديــم.	٥
٢.	تقدير المصلحة وتنظيم المباح .	٨
٣.	الأمن الغذائي حمايته وحرمة التلاعب به .	١٣
٤.	مخاطر استباحة المال العام والحق العام .	٢٠
٥.	مخاطر الطلاق .	٢٦
٦.	مخاطر الهجرة غير الشرعية .	٣١
٧.	مفهومُ التنميةِ الشاملةِ .	٣٦
٨.	الزكاة والصدقات ودورهما في التنمية المجتمعية	٤٢
٩.	فروض الكفايات ودورها في تحقيق التوازن المجتمعي .	٤٩
١٠	الوقاية خير من العلاج .	٥٨
١١	حق الوطن والمشاركة في بنائه .	٦٣
١٢	مكارم الأخلاق وأثرها في بناء الحضارات .	٧١

م	الموضوع	الصفحة
١٣	التفوق العلمي وأثره في تقدم الأمم .	٧٨
١٤	الصلابة في مواجهة الجوائح والأزمات.	٨٣
١٥	الحَلالُ بَيِّنٌ والحَرامُ بَيِّنٌ .	٨٧
١٦	حقوق الجار.	٩٣
١٧	جبر الخاطر وأثره على الفرد والمجتمع .	١٠٣
١٨	قيمة الاحترام .	١١٠
١٩	المواساة في القرآن الكريم .	١١٨
٢٠	الأسرة سكن ومودة .	١٢٤
٢١	تنظيم النسل ومتغيرات العصر .	١٣٠
٢٢	النظافة سلوك حضاري وإنساني .	١٣٦
٢٣	التكافل المجتمعي (حقوق الوالدين والمسنين والضعفاء أنموذجًا).	١٤٢
٢٤	العمل واجب .	١٤٨
٢٥	التاجر الأمين .	١٥٤

م	الموضوع	الصفحة
٢٦	الصانع المتقن .	١٦٠
٢٧	الزارع المجد .	١٦٦
٢٨	أهمية الاستثمار في حياتنا .	١٧١
٢٩	الفهرس .	١٧٦

❊ ❊ ❊

طُبع
بمطبعة وزارة الأوقاف

الناشر / المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

رقم الإيداع :

الترقيم الدولي: